

السيد عبد الحسين دستغيب

دار البلاغة

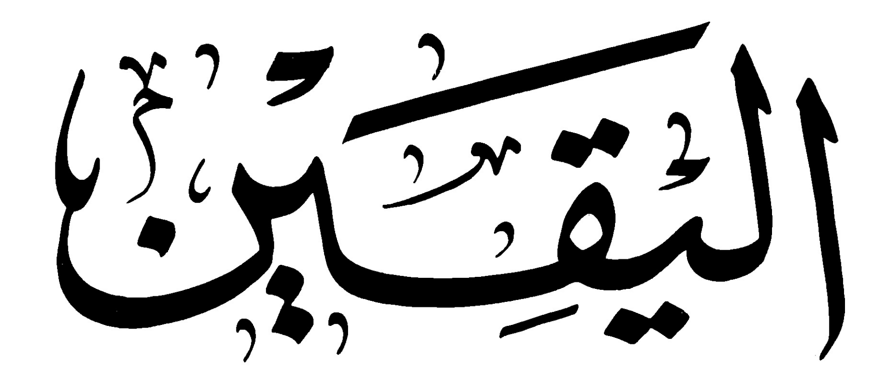

اليقين



978-9953-551-63-0

دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - هاتف: 5 / 334 544 9611+ - فاكس: 787 546 9611+ - ص.ب:16/25 الغبيري
E-mail: dar_albalagha@hotmail.com



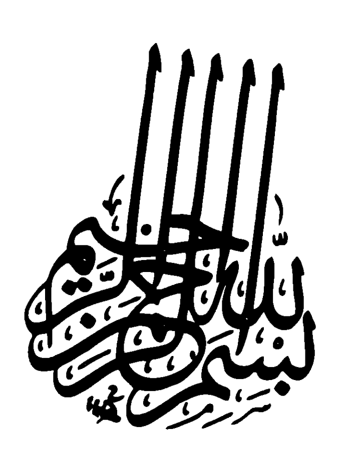
السيّد عبد الحسين دستغيب





تعريب
لجنة الهدى

دار البلاغة



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

كما يترعرع الإنسان من طفولة جاهلة إلى صبى وشباب وكهولة حكيمة كذلك هو الإيمان عندنا نحن عامة الناس نقرأ ونسمع وندرك، ونبحث عن المعقولات وعن تراكم المعلومات والتجارب والممارسة حتى يترسخ الإيمان في قلوبنا ويصبح من المسلّمات لدينا. بينما هناك من ولدوا معجونين باليقين، خرجوا من بطون أمهاتهم ساجدين شاكرين حامدين مستيقنين، إنهم رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته الكرام علي وفاطمة وأبناؤهم الأحد عشر عليهم السلام الذين شكلوا للبشرية جمعاء مثال اليقين ومصباح اليقين وعون اليقين، فبهم ندرك اليقين، ومن سيرتهم يطمئن القلب إلى بلوغ اليقين، ومن كلامهم ونورهم يترسخ اليقين.

المؤلف الشهيد السعيد تمثّل بالرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وأحبّهم، وتوسّل إلى الله بهم، فأدرك بارقة من أنوارهم، أشعت في نفسه وكلامه وقلمه، فراح يزرع اليقين في قلوب المؤمنين، ويستقطب حتى قُساة القلوب لتلين قلوبهم بين يديه كالعجينة، ليعود فيسكبها في قالب أسلوبه الحنون المشفق ويصنع منهم شهداء وقادة وسادة، مسلمين مؤمنين مستيقنين.

ورغم حجم هذا الكتاب الصغير إلّا أنه منهاج وافٍ، لمن أراد أن يعرف معنى اليقين، ويبيّن طريق اليقين، وينال اليقين إن هو التزم به عملياً، وجاهد نفسه، وأصفى ذهنه، وسار بعون الله نحو الفوز العظيم.

رزقنا الله وإياكم اليقين كما يحب ويرضى، وضاعف أجر المؤلف الشهيد، وحشرنا وإياه مع أهل اليقين محمد وآله الطيبين الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

موسى قصير

❊ ❊ ❊

الفصل الأول

أول الدين معرفته

المعرفة بمقدار القابلية

ما هو المقصود من أنّ العلم هو الحجاب الأكبر؟

ما هو معنى اليقين؟

انشراح الصدر

علامات أهل اليقين

اليقين الصادق واليقين الكاذب

اليقين بالمعاد والثواب والعقاب

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة الله

«أول الدين معرفته»

من الطبيعي أن تكون لدى الإنسان المسلم معرفة عقلية ابتدائية بخالقه، ولكن ذلك لا يكفي، لأنه يشكّل الإسلام بالمعنى الأعم. وإنما يجب الوصول إلى درجة الإيمان القلبي أيضاً الذي يشكّل الإسلام بالمعنى الأخص. حيث يوصينا القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [البقرة/ ١٣٢].

أي التسليم إلى الله تعالى، وهو الإيمان القلبي، فما لم يحصل الإيمان القلبي لا يمكن للكمال الإنساني أن يظهر وينمو، لأنّ تكامل الإنسان يكمن في معرفته القلبية بخالقه.

ويقول تعالى أيضاً: ﴿**قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ**﴾ [الحجرات/ ١٤].

حيث أسلم بعض أعراب البادية إسلاماً ظاهرياً دون أن ينهلوا من المعارف الإلهية، وكانوا يدّعون بأنهم مؤمنون، لذلك يوضح لهم القرآن الكريم أن هذه المرتبة من الإسلام هي المرتبة الظاهرية وهي لا توصلهم إلى الكمال الواقعي، إلّا أن تكون مقدمة للإيمان والاعتقاد القلبي.

نعم أنتم مسلمون من جهة الاستدلال العقلي والمعرفة الإجمالية، لأنه تسليم بأحكام الإسلام لا غير، لكن عليكم أن تسعوا لتحصيل الإيمان القلبي كي تصلوا إلى الكمال.

«**وكمال معرفته التصديق به**» ولا يحصل التصديق بالحق إلّا بعد استقراره في القلب، فينتج عنه الخشوع لله تعالى.

ومن أجل أن يحصل الإنسان على الإيمان والعلم الحقيقي عليه أن يزيل حجاب النفس أولاً. وإلّا فكيف يمكنه رؤية ربّ العالمين مع وجود حاجب الأنانية، واعتقاده بالوجود المستقلّ لنفسه. فما دام هذا التصوّر الخاطىء موجوداً، لا يمكنه إدراك الحقيقة، وهي أنه ممكن الوجود؟!.

و(الممكن) هو من أعطى له الوجود، فالوجود ليس من ذاته فقط في حين أن واجب الوجود هو الذي يكون وجوده عين ذاته، والذي هو صرف الوجود، أما غيره من جميع مراتب الوجود؛ فهي لا شيء من حيث الذات، بل يجب أن يضاف لها الوجود.

ولكن مثل هذا الشخص لم يصدّق بعد بأنّ الموجودات بأجمعها محتاجة إلى الله تعالى، فما لم يفهم هذا المعنى، وما دام يتصوّر لنفسه وجوداً مستقلًا فلن يمكنه أن يصير عارفاً بالله؟!.

الأنانية

يجب أن يسعى الإنسان لعلاج هذا الحجاب، أي معالجة ذلك التصوّر الخاطىء. ولا بدّ له من جهاد النفس، وتحمّل الصعوبة، ليفهم واقعاً بأنّ ذلك التصوّر هو وهمٌ محضٌ وباطلٌ، ويدرك نفسه على حقيقتها. فما هي (الأنا)؟.

فأنا لم أستطع يوماً أن أختار ما أريد لنفسي، وذهابي من الدنيا ليس باختياري، ولا أعرف ما يجري داخل جسدي ونفسي، فما الذي أستطيع فعله؟!.

الربح والخسارة والموت والحياة والقوة والضعف كلّها أمور خارجة عن اختياري. فهل يمكن أن أحتفظ بالصحة والشباب لنفسي. أو أن أمنع الموت عنها؟ أو أمنع شيب شَعري؟.

على الإنسان أن يدرك عجـزه وفقره الذاتي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فالجميع محتاجٌ في كلّ شيء. في القوة والقدرة والإدراك والحياة التي هي مصدر جميع الأشياء الأخرى.

عليه أن يُقرّ بالفقر الذاتي لنفسه ولدى جميع الممكنات، ليستطيع إزالة حجاب الأنانية. وأن يسعى لمعالجته بالتفكر والتدبّر والعمل. وأن لا يغذّي نفسه الأمارة. فاتباع الهوى يزيد في اتساع حجاب النفس وسماكته.

المعرفة بمقدار القابلية

«**وكمال معرفتـه التصديق به**» أي التصـديق والإيمـان القـلبي بالله. والعلم واليقين الذي يظهر من خلال الخشوع التذلل لله لا يأتي دفعة واحدة، وهو غير محدود أيضاً، فكما أنّ الله سبحانه وتعالى غير محدود، فكذلك معرفته غير محدودة أيضاً. وعلى كل شخص أن يسعى ـ وحسب قابليته ـ ليزيد في يقينه يوماً بعد يوم.

في المرتبة الأولى عليه أن يحصّل العلم، وهو بحاجة إلى مجاهدة النفس والتضرّع إلى الله والانقطاع الكلّي إليه، ليوفقه الله إلى ترويض نفسه بأن يقلّل من اتباعه لأهوائه.

وعندما يصل إلى درجة العلم، عليه أن يستمرّ ولا يتوقف، لأنّ الحجاب ما زال موجوداً، وغاية الأمر أنّ الحجاب أصبح رقيقاً بالعلم، وما زال بحاجة إلى وقت طويل ليزول نهائياً.

حجب الظلمة وحجب النور

ورد في بعض الروايات أنّ هناك بين العبد وربه سبعين ألف حجاب من ظلمة، وسبعين ألف حجاب من نور.

وهذه الأمـور أعلى من إدراكاتنا طبـعاً، ولا يدركها إلّا أفراد معدودون

بالأصابع. فعندما يحصل الإنسان على مَلكة العلم، فقد زال مقدار من حجب الظلمة عن قلبه، ولا يعني أنها قد زالت نهائياً.

ما هو المقصود من أن العلم هو الحجاب الأكبر؟

قال بعض العلماء بأنّ (العلم هو الحجاب الأكبر) والظاهر أنّ المقصود هو حجاب النور. والجدير بالذكر هو أنّ المتكلم بهذا الكلام لم يقصد فائدة العلم، وإنما أخبر عن صيرورته حجاباً، وذلك عندما يتعلّم الإنسان وتزداد معلوماته وتتراكم في ذهنه، فيتصوّر أنها منه، وأنه قد توصل إلى الحقائق والواقعيات ويعتمد ذلك المنطق الخاطئ. أو لا سمح الله قد يرى نفسه أفضل من الآخرين. وعلى أيّ حال فإنه يصبح بذلك رهين حجاب الغرور والتصوّرات الخاطئة ما دام يرى نفسه وعلمه.

أما كونه حجاباً أكبر فلأن الحجب الأخرى قد ينتبه الإنسان إليها ويسعى لعلاجها والتخلّص منها، لكن حجاب العلم لا يلتفت إليه الإنسان حتى يسعى للتخلص منه وعلاجه، إلّا إذا أدركه شعاع من لطف الله ورحمته ويجعله ينتبه إلى ذلك وينقذه.

وعلى أي حال فإنّ (سوء الحال) هو أن يكون الشخص مذنباً ولا يسعى للتوبة وترك الذنوب، سجين الحجب ولا يسعى لإزالتها. أما (أسوأ الحال) فهو أن لا يرى نفسه مذنباً، وواضح أنّ الأول قد يوفق للتوبة والخلاص، ولكن الثاني لا أمل بنجاته بحسب الظاهر إلّا بلطف من الله وفضل؟

وبعبارة أخرى، فإنّ القسم الأول هو الجهل البسيط، والثاني هو الجهل المركب.

الرؤية القلبية والعلم

وبعد أن يصل إلى مرتبة العلم عليه أن يسعى للوصول إلى مرتبة (العين) وهي كمال العلم. أي ينتقل من مرتبة (علم اليقين) إلى (عين اليقين) والتي تسمى (رؤية القلب).

وعندما يصل إلى تلك الدرجة عليه أن يستمرّ بالصعود أيضاً: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف/ ٧٦].

يأمر الله عز وجل رسوله الكريم بذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمًا﴾ [طه/ ١١٤].

والمرتبة التالية هي الوصول إلى الحق. ولا يمكن توضيح (حق اليقين) بالعبارات العلمية، وإنما يتمّ تقريبه إلى الأذهان بواسطة الأمثلة والتشبيهات وبمقدار محدود، فهو أعلى من أن يدرك بالحواس، فهناك فرق بين (رؤية الدخان) و(الاحتراق بالنار).

وهذا التشبيه منقول عن (المحقق الطوسي) حيث يقول في مراتب المعرفة وهي: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين: بأنّ الإنسان قد يرى دخاناً من بعيد، فيحصل له العلم بوجود النار هناك، لأنّ العين ترى أثر النار، وهذا هو (علم اليقين). وعندما يقترب أكثر، ويرى النار بعينه، فقد وصل إلى مرتبة (عين اليقين). ولو اقترب أكثر من ذلك حتى يحسّ بحرارة النار وألم الحريق عندها يصل إلى (حق اليقين).

الشيء المهم هو همّة الشخص في الصعود، وعدم البقاء في مرتبة معيّنة، والسعي في طلب الكمال، حيث إنّ الحصول على العلم مهم جداً، وقد أمر الله عز وجل بذلك في القرآن الكريم حيث يقول: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد/ ١٩] وليس في ذلك العلم الإجمالي العقلي، بل يجب الوصول إلى العلم الذي لا يخالطه الشك والريب، ويحصل على السكينة والاطمئنان، بحيث لو لم يبق في الأرض موحدٌ غيره لما راوده أيّ شكٍّ أو تزلزل في عقيدته.

ولكي نفهم معنى اليقين أكثر نقول: إنّ اليقين هو الطريق الوحيد للحصول على السعادة والدرجات العليا، وهو أمل العظماء والأولياء هو نور إلهي يشرق في القلب، ويسبب ظهور وانكشاف الحق والواقع للإنسان واعتقاده به، بحيث لو سمع من

مخالف الحق مئات الشبهات والوساوس فإنها لا تؤثر فيه شيئاً إطلاقاً، فمثله مثل الشخص الذي يرى ناراً ودخاناً من بعيد، فيحصل له اليقين باشتعال النار في ذلك المكان أو في ذلك البيت، فعند ذلك لا يستطيع أيّ أحد أن يخطئه في ذلك.

لوازم اليقين لا تنفصل عنه

ومن نتائج ذلك النور الذي يشرق في قلب الإنسان: ظهور آثار ولوازم ذلك العلم والاعتقاد. فالشخص الذي يرى النار والدخان يتصاعد من بيته الذي يحتوي على الأثاث والممتلكات، ويتيقّن من نشوب الحريق في بيته، لا بدّ وأن يسارع إلى إطفائه، فهو من لوازم ذلك اليقين. وإذا لم يهتم لذلك فهو إما غافل عن الحريق، أو يتخيّل أنّ النار مثلاً لا تحرق الأثاث! فلذلك لا يتحرّك لإخمادها.

سيطرة الغفلة والوهم على اليقين

ومثال ذلك أيضاً الشخص الذي يخاف من الجنازة الملقاة في غرفة مظلمة في حين أنه على يقين من أنّ الميت لا يفعل شيئاً ولا يستطيع الحركة. فهو لم يكن يخشى منه عندما كان حياً، فكيف يخاف منه وهو ميت؟!

ونفهم من ذلك أنّ قوته الواهمة قد تغلّبت على قوته العقلية، فلم يكن بإمكانه الالتزام بلوازم ذلك اليقين الذي من جملته: عدم الخوف من الميت.

ولعلّ في عبارة «**ويقيناً صادقاً**» الواردة في آخر (دعاء أبي حمزة الثمالي) إشارة إلى هذا المعنى، وهو اليقين المصحوب بآثاره ولوازمه.

اليقين بصفات الله

اليقين بأنّ الله عز وجلّ عليمٌ وقديرٌ ومطّلعٌ وناظرٌ إلى العبد في جميع الأحوال والأماكن ينتج الحياء من الله، وترك كلّ ما يخالف الأدب والعبودية، كما أنّ اليقين بقدرة الله المطلقة يكون في التوكل عليه في جميع الأمور، وعدم الخوف من غيره،

واليقين برازقيته يكون بترك الحزن على المعاش. كما أن اليقين بأنّ جميع الأمور بيده، وأنه هو المدبّر الذي لا يقدّر أمراً إلّا وفيه صلاح العباد وخيرهم يكون بالصبر والرضا والتسليم والتفويض وترك الحرص والبخل. وهكذا بقية الأمور الأخرى التي يحصل لديه اليقين بها.

ما هو معنى اليقين؟

وقد أشير إلى (نور اليقين) في عدة مواضع من القرآن الكريم: ﴿**أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ**﴾ [الزمر/٢٢] أي (هل هو كالآخرين؟) أو ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا**﴾ (لكي يرى به الحق ويتّبعه) ﴿**يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ [الأنعام/ ١٢٢].

وأيضاً: ﴿**فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ**﴾ (أي يتركه ويوكله إلى نفسه) ﴿**يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ**﴾ (أي يكون قبول الحق بالنسبة له صعباً كصعوبة الصعود إلى السماء) ﴿**كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأنعام/ ١٢٥].

انشراح الصدر

عندما نزلت هذه الآية الشريفة سئل رسول الله ﷺ عن معنى شرح الصدر، فقال: «**نور يقذفه الله في قلب المؤمن، فينشرح له صدره، وينفسح**» (لقبول الحق). قالوا: فهل لذلك من أمارة يُعرف بها؟ قال ﷺ: «**نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت**»[١].

اليقين بالنبوة

وبعد أن يتيقّن الإنسان من أنَّ الله عزّ وجل حكيم، وأنّ كلّ موجود في عالم

---

(١) مجمع البيان للطبرسي، ج٢.

الوجود لا يخلو من حكمة في خلقه وإيجاده، فحينئذ يفكر ويرى أنّ لكل شيء نتيجة وغاية، إذاً فما هي الغاية من خلق الإنسان؟ فلو كانت هذه الحياة المادية المحدودة هي كلّ شيء للإنسان، أي أنه خلق من التراب، وسوف ينعدم ويرجع تراباً مرة ثانية، فإنّ خلقه سيكون عبثاً ولغواً في الواقع؛ بل يكون قد ارتكب في حقه أفحش الظلم، لأنّ من لوازم حياة الإنسان المادية وجود أنواع الأمراض والمصائب والمصاعب التي تواجهه في حياته كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

إذاً فالعقل يوجد اليقين بأنه لا بدّ من حياة أبدية لهذا الإنسان، وأنه لا ينعدم بالموت، وأنّ السعادة الحقيقية التي هي الغرض من خلقه سوف تظهر في ذلك العالم الأبدي.

من أجل معرفة تفاصيل الحياة الأخروية والطريق الموصل إلى السعادة الدائمية بعث الله عزّ وجلّ أحداً يرشد الناس إلى ذلك العالم الأبدي، ويعلّمه من علمه ليدلّ الناس ويهديهم إلى طريق سعادتهم، وكذلك يشرّع لهم القوانين الكفيلة بتنظيم أمور مجتمعهم، ويقيم فيهم الحكومة الإلهية.

ومن أجل أن يصدّق الناس أقواله ويتيقّنوا بأنّ ذلك من الله عز وجل، عليه أن يكون معه شيء من القدرة الإلهية اللامتناهية التي يعجز سائر أفراد البشر عن الإتيان بها. أي أن يكون لديه معجزة.

وبعد معَرفة ما تقدّم، والرجوع إلى القرآن الكريم، والعلم بأنه معجزة، يحصل لديه اليقين بأن محمدبن عبد الله ﷺ نبي ومرسل من قبل الله عز وجل، وأنّ كل ما نطق به كان صدقاً، وتجب إطاعته في كلّ ما أمر به.

ومن جملة الأمور التي أخبرنا بها القرآن الكريم، وصرّحت بها الأحاديث المتواترة هو أنه ﷺ خاتم الأنبياء، وأنّ الله تبارك وتعالى لن يرسل نبياً بعده. وأنه قد بيّن جميع ما يحتاج إليه الإنسان إلى يوم القيامة.

ولازم هذا اليقين هو أنه لو ادّعى أحد النبوة بعد ذلك، وقال بأنه نزل عليه الوحي من قبل الله تعالى، وأن على الناس أن يتبعوه فهو كاذب يقيناً. ولو شوهد منه بعض الأفعال العجيبة منه، أو أخبر عن بعض الأمور الغيبية فهو سحر قطعاً، وقد جاء به من الشياطين. فإن كانت للإنسان القدرة على قتله لوجب ذلك دفعاً لفساده وضرره.

علامات أهل اليقين

روي عن رسول الله ﷺ قوله:

«لا تجلسوا عند كلّ عالم إلّا عالم يدعوكم من الخمس إلى الخمس:

- من الشك إلى اليقين (أي يخرجكم من الشك، ويهديكم إلى اليقين).

- ومن الكبر إلى التواضع.

- ومن الرياء إلى الإخلاص.

- ومن العداوة إلى النصيحة.

- ومن الرغبة إلى الزهد»[1].

الدعوة بالعمل وليست باللسان

ومن الجدير ذكره أنَّ المقصود من الدعوة إلى اليقين والتواضع والإخلاص والزهد والنصيحة ليست الدعوة باللسان فقط، لأنّ الدعوة باللسان فقط لا تكون مؤثرة؛ بل قد تكون النتيجة عكسية أيضاً لأنّ الشخص الذي يدعو الآخرين بلسانه إلى اليقين والتواضع والإخلاص، وهو في نفس الوقت من أهل الشكّ والرياء والكبر والعداوة وحبِّ الدنيا؛ فإنّ هذه المفاسد ستكون بصورة أشدّ في الشخص

---

(١) كتاب الاختصاص للشيخ المفيد.

الآخر، لأنه سوف يقول لو كان ما يقوله صحيحاً لما كان هو على هذه الحالة. وسوف تنتقل ظلمات الشك والرياء والكبر إلى ذلك المخاطب وتؤثر فيه. إذاً فالمقصود من الدعوة في هذا الحديث هي الدعوة إلى الفضائل المذكورة بالقول والعمل، حتى يمكنه أن يؤثّر على المخاطب ببركة نورانيته الباطنية، أي القلبية، كما وردت الإشارة إلى هذا المعنى في حديث آخر.

يذكّر بالله

ورد في الروايات أنّ الحواريين قالوا لعيسى ابن مريم: من نجالس؟ قال عليه السلام: «من تذكّركم الله رؤيته (يعني أنّ نور يقينه يطرد عن قلوبكم الغفلة وظلمات الشكوك والأوهام والخيالات الواهية، ويكشف عن فطرتكم التي تتجلّى في ذكر الله) **ويزيد في عملكم منطقه، ويرغّبكم في الآخرة عمله**» (المسافر الغافل عندما يرى رفيقه وهو يستعد لتهيئة وسائل السفر والطريق؛ فينتبه هو أيضاً لذلك ويسعى للتزود بالمتاع وأمور السفر)[1].

أهل اليقين وطاعة أوامر الإمام عليه السلام

يقول مأمون الرقي: كنت عند سيدي الصادق عليه السلام إذ دخل سهل بن الحسن الخراساني فسلّم عليه، ثم جلس، فقال له: يا بن رسول الله لكم الرأفة والرحمة، وأنتم أهل بيت الإمامة، ما الذي يمنعك أن يكون لك حق وتقعد عنه، وأنت تجد من شيعتك مائة ألف يضربون بين يديك بالسيف؟!

فقال له عليه السلام: «**اجلس يا خراساني رعى الله حقك**» ثم قال: «**يا حنيفة اسجري التنور**» فسجرته حتى صار كالجمرة وابيض علوّه. ثم قال: «**يا خراساني قم فاجلس في التنور**». فقال الخراساني: يا سيدي يا بن رسول الله لا تعذبني في النار، أقلني أقالك الله. قال: «**قد أقلتك**».

---

(١) أصول الكافي للكليني، باب مجالسة العلماء، الحديث ٣.

فبينما نحن كذلك إذ أقبل هارون المكي، ونعله في سبابته، فقال: السلام عليك يا بن رسول الله. فقال له الصادق عليه السلام: «**الق النعمل من يدك واجلس في التنور**». فألقى النعل من سبابته، ثم جلس في التنور. وأقبل الإمام عليه السلام يحدّث الخراساني حديث خراسان حتى كأنه شاهدٌ لها، ثم قال: «**قم يا خراساني وانظر في التنور**». قال: فقمت إليه فرأيته متربعاً، فخرج إلينا وسلّم علينا، فقال له الإمام عليه السلام: «**كم تجد بخراسان مثل هذا؟**» فقال: والله ولا واحد. فقال: «**أما إنّا لا نخرج في زمان لا نجد فيه خمسة معاضدين لنا، نحن أعلم بالوقت**»(١).

علامات أخرى لأهل اليقين

يجب أن تظهر عليه آثار اليقين بالعقائد الدينية، ويعلم منه صدق ذلك اليقين. وقد ذكرنا في بحث موارد اليقين بالتفصيل آثار اليقين الصادق. وسنذكر هنا بعض الموارد المهمة باختصار:

١- الاعتقاد بالتوحيد الأفعالي أمر واجب

فمن جملة تلك الموارد التوحيد الأفعالي، ويعني أن يتيقّن الإنسان بأنّ جميع الكائنات في العالم هي من الله تعالى في أصل وجودها، وكذلك في تأثيرها وخواصها الموجودة هي من الله أيضاً، كبرودة الماء ورطوبته ، وحرارة النار وجفافها وكذلك حرارة نور الشمس وضيائها، هكذا في سائر الموجودات الأخرى.

بل إنّ أفعال الإنسان الاختيارية أيضاً مستندة إلى الله تعالى، من حيث إنها متوقفة على إذنه وإرادته وقضائه. فكما أنّ الورقة لا تسقط من الشجرة دون إذن الله ومشيئته وعلمه تبارك وتعالى. فكذلك الكلمة التي تخرج من فم الإنسان فإنها لا يمكن أن تخرج دون علمه وإرادته تبارك وتعالى.

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي، ج٤٧، ص١٢٣.

سبق وأن ذكرنا شرح التوحيد الأفعالي في بحث الشرك، وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أنه من الواجب الحصول على اليقين الصادق بهذا الشكل من التوحيد، حيث ورد الأمر به في مئات الآيات القرآنية. فلو أنّ أحداً فهم التوحيد الأفعالي واقعاً، وأشرق قلبه بنور اليقين بهن فإنه سيكون متوكلاً على الله لا غير، وسيكون راضياً ومُسَلّماً للقضاء الإلهي، وسيكون محفوظاً من شرِّ الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق ببركة ذلك النور. وفي مقابل ذلك سيكون متنعماً بالمحبة والراحة وحسن الخلق.

٢- رزق كلّ مخلوق على الله

ومن جملتها اليقين: بأنّ الله عز وجل قد تعهّد برزق عباده كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود/ ٦].

يجب أن يكون على يقين بأنه سوف يحصل على رزقه المقدر، وأنه لا يستطيع أيّ مخلوقٍ أن يمنع عنه ذلك الرزق. فلو أصبح هذا اليقين صادقاً بمعنى أنّ قلبه قد أضاء بنور اليقين، وأزال عنه الأوهام الخيالية، فإنه سيكون محفوظاً من شرور الحرص. وسوف لا يحزن على ما لم يحصل إليه.

٣- اليقين بالمعاد والثواب والعقاب

ومن جملتها اليقين بالثواب والعقاب في قبال جميع معتقداته وأقواله وأفعاله.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة/٧- ٨].

وأن يكون على يقين بأنّ نسبة الثوب إلى الطاعات هي كنسبة الشبع إلى الخبز، فكما أنّ الشخص الجائع يطلب الخبز ويريده، ويحرص على الحصول عليه ويسعى في المحافظة عليه. فكذلك طالب الثواب الإلهي بالنسبة إلى الطاعات. فهو حريص على المحافظة عليها.

ونسبة العقاب إلى الذنوب كنسبة السمّ إلى القتل، فكما أنَّ الإنسان يهرب ويبتعد عن كلّ سمٍ وحيوان قاتل، ينبغي أن يخاف من الذنوب.

وعلى كلِّ حالٍ عندما يتنوّر القلب بنور اليقين فإنّ الإنسان يغدو حريصاً وساعياً إلى الطاعات، وفي الوقت نفسه يكون حذراً جداً من الذنوب، فهو يراقب أعماله وأقواله دائماً حتى لا يهلك. وكلّما ازداد نور اليقين في القلب يزداد معه هذا السعي والتقوى.

٤ـ الله عزّ وجل معنا

والأمر الآخر هو اليقين بأنَّ الله تعالى باقٍ، وهو مع العبد، ومحيط به في كلّ مكان، وعلى أية حالة: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد/ ٤].

وأنه لا يخفى عليه أيّ شيء سواه ظاهراً كان أو باطناً: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر/ ١٩].

وهذا الموضوع مُسلّم به لدى جميع المسلمين إلّا أنه يجب الحصول على اليقين الصادق بذلك، ونتيجة اليقين بذلك تتجلّى بتساوي كثرة الناس وقلّتهم عنده، ويرى نفسه دائماً في حضور السلطان الحقيقي، والملك العليم والقادر المطلق. وهكذا نجده يحذر في كلّ حركة أن لا يصدر منه ما يخالف الأدب، وبما أنه يعلم أنَّ باطنه مكشوف عند الله تعالى، فهو يسعى دائماً لإصلاحه أكثر من إصلاح ظاهره للناس.

لم يكن يمدّ رجليه

ذكروا عن حالات (المحقق الأردبيلي) بأنه لم يكن يمدّ رجليه مطلقاً طيلة أربعين سنة حتى أثناء النوم. وعندما سألوه عن ذلك قال إنني أخجل أن أمدّ رجلي أمام ربي. وقد نقل ذلك أيضاً عن حالات بعض العرفاء أيضاً.

وذكروا عن رجل آخر أنه كان يمتنع عن مدّ رجليه وهو على فراش الموت، ويقول: بأنني لم أُسىءْ الأدب أمام ربي لحدّ الآن، فكيف أفعل ذلك وأنا على فراش الموت؟ وعندما مدّدوا رجليه إلى القبلة عند احتضاره كان يطلب العذر ويقول: إلهي بما أنك أمرت بذلك في هذه الحالة، فقد رضيت به.

وحكي عن شخص آخر أنه لم يكن يرفع صوته أبداً، وكان يقول بأنّ الصوت المرتفع أمام السلطان الحقيقي مخالف للأدب.

قارئي العزيز بإمكانك أن تدرك الفرق بين هؤلاء، وبين الأشخاص الذين تصدر منهم كلمات بذيئة ونابية في حضور الله عزّ وجل. وبذلك تفهم التفاوت الموجود بين أهل اليقين وعامة الناس الآخرين.

اليقين الصادق واليقين الكاذب

اليقين يعني معرفة الشيء بشكل لا يكون معه أي احتمال أو تردد على خلافه.

واليقين على قسمين: صادق وكاذب. كما مرّ علينا في عبارة الدعاء و«**يقيناً صادقاً**».

واليقين الصادق هو أن تظهر تأثيراته لشدّة قوته. أما اليقين الكاذب فهو الذي يفقد القدرة على التأثير لضعفه وغلبة القوة الواهمة عليه، كمن هو على يقين من أنّ جسد الميت لا يؤذي أحداً، فهو كالخشبة اليابسة ليس لها حراك، ولكن مع ذلك نجده لا يستطيع البقاء بمفرده في غرفة مغلقة، في حين أنه لم يكن يخاف منه عندما كان على قيد الحياة. والسبب في ذلك هو غلبة القوة الواهمة التي تمنع اليقين من أن يؤثر أثره.

أما اليقين الكاذب في الأمور الدينية فهو كالشخص الذي يتيقّن بأنّ الله تعالى رازق، ومع ذلك نجده قلقاً على رزقه. وتارة نجده مهموماً محزوناً على رزق الأيام

والسنين التي لا يضمن أنها ستكون من مدّة عمره. فهو في الوقت الذي يعلم يقيناً بأنّ معطي الأسنان هو الذي يتكفل بإيصال الخبز أيضاً، ولكنه مع ذلك قلق لما سيحدث فيما بعد.

والشخص الذي يعلم يقيناً بأنّ جميع الأمور تجري بقضاء الله وقدره ومشيئته. فأين صبره ورضاه وتسليمه وتوكله عليه؟ أليست هذه الأمور من لوازم اليقين بالقضاء والقدر؟

والشخص الذي يكون على يقين من الموت، ويحتمل وصوله في أية لحظة، فلماذا هذا الحرص والبخل والعداوة والفساد؟

ولهذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام «**ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من اليقين بالموت**».

يعني أنّ عمل الناس وفعلهم يشبه عمل الشخص الذي يشكّ في الموت. ولو دققنا النظر في أفعالهم وحالاتهم لرأينا أنّ أفعال أكثر الناس وتصرّفاتهم تشبه فعل من يتيقن بعدم الموت، والبقاء في الدنيا خالداً.

ومن كان على يقينٍ من اليوم الآخر والجزاء الأخروي وكتابة أعماله وأقواله وأنه سيحاسب على كلّ صغيرة وكبيرة، وكلّ ذرة من الخير أو الشرّ ويجازى عليه، فإن نتيجة هذا اليقين ينبغي أن تكون مراقبة أعماله وأقواله بدقة، وأن يكون خائفاً من ذلك اليوم. إذاً فلماذا هذه الغفلة وعدم الالتزام وقلّة المبالاة بذلك؟

الخوف علامة الإيمان

روي أن أعرابياً أسلم على يد رسول الله صلى الله عليه وآله، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بعض أصحابه بأن يعلّمه شيئاً من القرآن، فعلّمه سورة الزلزلة فقال الأعرابي: كفاني هذا، وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يسأله: هل يسأل عن الأعمال يوم القيامة حتى ما كان بوزن الذرة؟

فقال رسول الله ﷺ: «بلى» فصاح الأعرابي قائلاً: وافضيحتاه.

فقال رسول الله ﷺ: «رجع فقيهاً». أي إنّ هذه الحالة من الخوف هي دليل على دخول نور الإيمان واليقين بالمعاد إلى قلبه.

وعلى كلّ حال فهذا النوع من الأسئلة كثير. وخلاصة هذه الأسئلة أنه هل هناك علمٌ ويقينٌ بهذه الأمور، أو لا؟ فإن لم يكن ـ لا سمح الله ـ فهو الكفر، وإن كانت موجودة، فأين آثارها ولوازمها؟

والجواب على هذه الأسئلة هو أنّ أصل الاعتقاد موجود، ولكن بسبب ضعف الجانب الروحي والمعنوي، وغلبة قوة الجانب الحيواني والمادي، فإنّ اليقين لا يؤثر شيئاً، إضافة إلى أنّ الاعتقاد بتلك الأمور ضعيف من أساسه ومعرّض للزوال، لأنه كلّما زال الجانب الروحي والمعنوي في الإنسان، وحلّ محله الجانب الحيواني، فإنّ الاعتقاد واليقين سوف لن يبقى بعد ذلك، ويكون حاله ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان/ ٤٤] فقلبه أعمى لا يبصر نور الإيمان ولا يفهم شيئاً منه ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الأعراف/ ١٧٩].

* * *

الفصل الثاني

- الغاية من خلق السماوات والأرض
- سعي الإنسان
- مراتب يقين الأنبياء
- النظر الاستقلالي والمرآتي

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

الغاية من خلق السماوات والأرض

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾.

[الطلاق/ ١٢]

يبيّن الله عز وجل في هذه الآية الشريفة الغرض من خلق السماوات والأرض والموجودات التي بينهما.

والهدف هو أن يصل الإنسان إلى العلم، ويحصل له اليقين بقدرة الله غير المحدودة وعلمه اللامتناهي. إذاً فالهدف من خلق الإنسان وجميع الأشياء تحصيل العلم، فالمعرفة الإجمالية الفطرية لا تكفي؛ بل يجب التوصل إلى الكمال الذي يقول عنه أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**وكمال معرفته التصديق به**».

يجب أن ينتقل الإنسان من المعرفة الإجمالية إلى اليقين، ويصدّق الله.

وفائدة اليقين هو عدم حصول التردّد في العقيدة عند مواجهة الشكوك، حيث يشرق قلبه ببركة نور اليقين إلى درجة تحصل له معها حالة من السرور والسعادة وطلب الكمال، وعندما يشرق ذلك النور في قلب أحد من الناس فإنّ له علامات جاء بعضها في رواية مذكورة في أصول الكافي للكليني، ومن جملتها أنه يحصل له العلم بحقائق الأمور. ويصغر العالم المادي في نظره ويعظم عنده عالم الآخرة.

وميزان الحق عند الشخص الأناني هو ذاته ونفسه. لذا على الإنسان أن يسعى لتهذيب نفسه وإلّا فإنّ الكنز لا يمكن الحصول عليه من دون تعب، فيجب عليه السعي حتى يصل إلى العلم. ومركز اليقين هو القلب فيجب فتح أبواب القلب ليدخل إليه نور العلم.

أما القلب المسدود فينبغي هدم السدّ أولاً، وينبغي أن أقول بصراحة إنّ السدّ الوحيد الذي يمنع الإنسان من الوصول إلى مرتبة العلم واليقين وسائر الكمالات، وأن يصبح إنساناً إلهياً هو الأنانية وحبّ الذات. فما دام الإنسان يرى نفسه، ويريد لها العلو والرفعة في المال والجاه والمقام، فلا يمكنه أن يرى الله تعالى، وأن يطلب الحق، حيث إنه قد جعل من نفسه ميزاناً للحق، فكلّ ما وافق مزاجه وهواه فهو حق، وكلّ ما خالف نفسه وهواه فهو باطل.

فهو يرتكب أقبح الأعمال ويرى نفسه محقاً في نفس الوقت، هذا هو الحجاب الأعظم الذي ورد ذكره في روايات أهل البيت عليهم السلام:

عن الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي متوجعاً باكياً: «**وإنك لا تحتجب عن خلقك إلّا أن تحجبهم الآمال دونك**».

وعن الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «**عميت عين لا تراك**».

فالله سبحانه وتعالى غير محجوب، بل إنه ظاهر، ولكن ما دامت الـ(أنا) موجودة فالإنسان في حجاب.

يقول أحد العلماء إنه لا يحتاج إلى أكثر من خطوة واحدة، وهي أن تدوس نفسك أولاً، فعندما تتجاوز ذاتك ونفسك، فقد توصلت إلى الحق، وعندما يزول العُجب بنفسك، فإنّ الحجاب سيزول. لذلك ينبغي السعي للحيلولة دون ازدياد الحجاب على الأقل.

وبطبيعة الحال فإنّ الشباب أقرب إلى الفطرة، وحجابهم أرقّ أيضاً، ولذلك فهم

يتأثرون بسرعة، ويذكرون الله تعالى لأنّ الـ(أنا) لم تصبح قوية بعد، وما زالت ضعيفة، فيمكن إصلاحه وإرشاده كذلك.

وعندما نرى هؤلاء الشبان يتدفقون على الجبهات، وقد يتوسلون ويبكون للسماح لهم بالذهاب إلى جبهة القتال، فإنّ ذلك بسبب انعدام الحجاب أو رقّته، بحيث يضحّي بكلّ شيء في سبيل الله تعالى.

ولكن عندما يكون غارقاً في التمنيات والأهواء، ويتّبع ما تملي عليه نفسه، فإنّ أنانيته ستقوى وتشتدّ يوماً بعد آخر إلى أن يصل به الأمر إلى القول بأني موجود، والله غير موجود، فهو يرى نفسه موجوداً مستقلاً. فأين هذا من حقيقة الأمر والواقع، وهو كونه عبداً لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟ فواقع الأمر هو أن يفهم بأن جميع الكائنات كذلك.

ولو أنّ أحداً كان رؤوفاً بحاله ونفسه، فعليه أن لا يترك الحجاب يشتدّ ويقوى على قلبه، والويل لمن اتّبع هوى النفس، لأن الحجاب سوف يشتدّ ويقوى في كلّ لحظة من التبعية.

واليقين بالحقائق هو كمال الإنسانية وهو لا يجتمع مع اتباع الهوى. فأما عبادة الله أو عبادة النفس، فالشخص الذي يفعل كلّ ما تأمره به نفسه، كيف يستطيع أن يجد الطريق إلى الله مهما درس وتعلّم، فما دام القلب غافلاً وجاهلاً فإنّ هذه الأدلة العلمية لا تنفع كثيراً.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في آخر (نهج البلاغة): «**وإنما هي نفسي أروّضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر**»[1].

وبعد ذلك نتوقع نحن أن نصل بدورنا إلى مراتب المعرفة ودرجاتها العليا، دون تهذيب النفس وتزكيتها.

---

(١) نهج البلاغة: الرسالة ٤٥.

إذاً فالحجاب الأعظم هي نفس الإنسان. وعليه أن يسعى في تهذيبها، لأنّ الحصول على (علم اليقين) لا يتيسّر بالقراءة، بل بإزالة حجاب الأنانية والذاتية. فما لم يهدم سدّ الأنانية لا يتيسّر له ذلك، وهدمه يكون بعدم إطاعتها.

والمناجاة في هذا المورد مفيدة جداً، وهي الدعاء والتوسل إلى الله تعالى، وخاصة (المناجاة الشعبانية) وغيرها، فاشتك إلى الله من نفسك «**وانفساه من هوى قد غلبني**» إلهي: إنّ نفسي قد أهلكتني «**ومن عدوّ قد استكلب عليّ**» فقد هجم عليّ كالكلب. فالنفس والشيطان لا يتركاني. فلو أنّ أحداً جسّد هذه الكلمة ﴿**إياك نستعين**﴾ وطلب العون من الله تعالى، فإنه سوف يعينه على ذلك حتماً.

سعي الإنسان

على الإنسان أن يسعى لإيصال معرفته بخالقه إلى حدّ التصديق القلبي، وأن يزداد سعيه يوماً بعد يوم. فعندما يصل إلى (العلم) يكون من آثاره: حبّه الشديد لخالقه. وعندما يصل إلى (عين اليقين) فإن حبّه سوف يزداد ويشتدّ ـ فالإنسان عبد الإحسان ـ فلو أنّ أحداً أحسن إليك، كأن تكون عينك مصابة مثلاً، فيأتي الطبيب ويعالجها فتشفى، فسوف يحسّ الإنسان بعلاقة المحبة تربطه مع الطبيب، ويغفل عن واهب العين، فكم على الإنسان أن يعشق ربّه ويشكره، ويعترف بالجميل لذلك الخالق الذي خلق لنا كلّ ما يرتبط بوجودنا، وكما قال الشاعر:

به جهان خرم از آنم كه جهان خرم از اوست

عاشقم برهمه عـالم كه همه عـالم از اوست

أي إني أعشق هذا العالم الزاهر والجميل لأنه من الله، وإني أعشق جميع الكائنات لأنّ الجميع منه.

فأينما ينظر الإنسان يشاهد الوجود وآثار الوجود التي ترجع إلى الله، فكل شيء في العالم يوجب محبّة الله والسعادة من حضور الحق، لذا ينبغي الارتباط والاقتراب

من الله تعالى أكثر، عبر إضعاف الحجب وإزالتها، وأن يرى الله حاضراً وناظراً إليه، ويُقبل عليه بالدعاء والمناجاة في مكانٍ منفردٍ، ويطلب منه الزيادة في العلم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه/ ١١٤].

وعين اليقين هي رؤية القلب، فهي أعلى درجة من العلم، وعندما يصل الإنسان إلى تلك المرتبة، تظهر عليه علاماتها وآثارها والأفضل أن نبيّنها ضمن حديث شريف:

لما وصل النّبي موسى عليه السلام إلى مرتبة (علم اليقين) ومقام التكليم ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء/ ١٦٤] وكلام النبي موسى مع الله عز وجل يرجع إلى عالم القلب ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء/ ١٩٣-١٩٤] فبعد أن وصل إلى مقام التكليم، واستعدّ قلبه الشريف لمخاطبة ربه؛ حينئذٍ طلب من الله تعالى الرؤية وقال: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف/ ١٤٣].

ومن الواضح أنّ موسى عليه السلام أجلُّ من أن يطلب الرؤية الحسّية، لأنه يعلم أنّ رؤية الله تعالى بهذه العين المادية مستحيل، لأنّ عين الإنسان الحسّية لا ترى إلّا الأجسام المادية والألوان مع توفر شروط عديدة، فلا بدّ أن لا يكون هناك بُعدٌ وقربٌ مفرطين، وكذلك يشترط عدم وجود الحائل بين العين وذلك الجسم، وعدم وجود الظلام، وبعد كل ذلك يكون حالها كالعين الحيوانية، فعين الإنسان لا تختلف عن عين الحيوان من حيث الرؤية.

أما بالنسبة إلى الله تعالى فهو الذي «**جسّم الأجسام ولا يقال له الجسم، وكيَّفَ الكيف فلا يقال له كيف، وأيَّن الأين فلا يقال له أين**».

فهو خالق الجسم، فكيف يكون جسماً فيكون محتاجاً إلى التركيب، والجسم حادث وممكن.

والله تعالى خالق المكان، وخالق السماوات والأرض، فلا يمكن أن يُسأل عن

كيفية إيجاده لتلك الأشياء، فعندما يقول النبي موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف/١٤٣] فلا يتخيّل أحدٌ بأنه كان يطلب الرؤية بالعين الظاهرية: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف/ ١٤٣].

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ إشارة إلى أن النبي موسى ما زال سجين حجاب الذات، فيستحيل معه أن يرى الله تعالى، وحيث يقول: ﴿أرني﴾ فنفس ياء المتكلم تعني وجود الـ(أنا) فهي حجاب، وهذا المعنى دقيق وعميق طبعاً، ويحتوي على حقائق فوق إدراك عقولنا المحدودة.

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف/ ١٤٣].

فيحتمل بأن يكون المقصود هنا هو جبل الأنانية. فلو اندكّ وتهدّم جبل الأنّية أي الـ(أنا) حينئذ يحصل الشهود، وعندما تحصل الصعقة ويزول الحجاب الأعظم وتموت الـ(أنا) موتاً إرادياً ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾ [الأعراف/ ١٤٣].

وطبعاً هذا المعنى نذكره على شكل احتمال، ولا نقصد أنه هو المعنى الحقيقي للآية الشريفة، فعندما تَهْدُمُ الهيبة الإلهية الـ(أنا) والأنانية، ويحصل الموت للنفس الأمّارة بالسوء، يستعدّ الإنسان للوصول إلى مرتبة (عين اليقين) وإلى ما هو أعلى منها، وهو (حق اليقين) حيث لا توجد معها ذرّة من الأنانية.

والمنزلة العليا والكاملة موجودة لدى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله حيث لا وجود لـ(أنا) في البين، وقد ورد في دعاء السجدة لخاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله: «**رب لا أحصي ثنائي عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**» فمن أنا حتى أثني عليك، فالثناء عليك يجب أن يكون منك أيضاً. أو يقول صلى الله عليه وآله في سجدة النصف من شعبان: «**سجد لك سوادي وخيالي، وآمن بك فؤادي**».

و«**ما عرفناك حق معرفتك**» لأن (ممكن الوجود) يبقى ممكناً مهما تقدّم

وتكامل، فالعبد عبد والربُّ ربٌّ طبعاً، فلا يمكن أبداً لمحمد ﷺ أن يكون رباً، فهو مع تلك الدرجة من القرب، وقد حصل له من كشف الحقائق ما لم يحصل لأحد من الناس، ومع ذلك يقول: «**ما عبدناك حق عبادتك**».

وأردت من بيان هذه المراتب بشكل مختصر: أولاً: أن نسعى لنتقدّم خطوة إلى الأمام، ولا نقنع ونتخيّل أنّ الدرجة التي نحن فيها هي الغاية لا غير؛ بل ينبغي أن نسعى لنتقدّم ببركة الله إلى أكثر من ذلك.

وثانياً: أن لا يصيبنا الغرور لما وصلنا إليه، فهناك مراتب أعلى من ذلك بكثير: ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف/ ٧٦].

«**أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق له**».

بما أنّ الموضوع مهم فيجب تكراره حتى لا تبقى أية شبهة في الذهن، ولا يتصوّر أحد أن المعرفة العقلية الاستدلالية كافية. لأنّ معرفة الله والرسول والمعاد بالعقل فقط هي معرفة ناقصة، ومعرّضة للأخطار، مثل: الشك والوسوسة فيمكن للتردد والوسوسة أن تهلك الإنسان. أمّا الذي يوجب له الأمن والطمأنينة فهو الإيمان القلبي، حيث يصدّق القلب ما عرفه العقل، وعند ذلك تظهر آثار الإيمان.

فمن جملة ما يترتب على قبول القلب بأنّ له إلهاً عليماً وقادراً هو أن تحلّ محبة الله في قلبه، فيترك كلّ معصية.

في حين أننا نرى بعض الذين قضوا عمراً في تعلّم هذه المعلومات، وعرفوا الأدلة العقلية بصورة جيدة، ولا نجد لها أثراً في القلب، فكلّ ما عنده هو باللسان فقط، ولا وجود للمعارف والحقائق في القلب، ولا يملك سوى حبّ الدنيا لا غير إنه مؤمن بالدنيا ومعتقد بها. فالتقدم الحاصل عنده يكون تقدماً من الناحية المادية والأهواء النفسية.

إذاً فليس كلّ من تعلّم ودرس هذه الأمور يحصل العلم القلبي بها، فهو قد

فهم المصطلحات العقلية، دون أن يتنوّر قلبه بنور الإيمان فعندما يقول العقل شيئاً ويعتقد به، دون أن يصدّق القلب بذلك كمسألة فناء الدنيا والموت، فكل عاقل يعلم بأنّ الشيء المركب لا بدّ وأن ينحلّ، وكذلك فإنّ لكل موجودٍ غاية وهدفاً من إيجاده بحسب الاستدلال العقلي، فعندما تحصل تلك الغاية، ويتحقق ذلك الهدف، فذلك يعني أن الموت سيأتي بعد ذلك. والعقل التجريبي شاهد على ذلك أيضاً، حيث لا يبقى أحد ممن كانوا قبل مائة سنة مثلاً، فيعلم يقيناً بأنه بعد مائة سنة تقريباً لم يبق أحد من الموجودين في هذا الوقت. ولكن القلب لا يؤمن بهذا المعنى، وهناك عبارة واردة عن الإمام علي عليه السلام حيث يقول: «**ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من اليقين بالموت**».

بمعنى أنّ الجميع يشاهدون ويدركون ذلك عقلاً، إلّا أنهم لا إيمان لهم بذلك، فالقلب لم يصدّق بعد، ولذلك نجدهم لا يذكرون الموت وزوال الدنيا، ويهتمون أشدّ الاهتمام بجمع لمال وتحصيل اللذة، في حين أنّ عمرهم لا يكفي لإنفاق كلّ هذه الأموال، فلماذا لا يرون الواقع؟ لأن حجاباً قد غطّى أعينهم الباطنية فهم غافلون وحريصون على جمع الأموال وزيادتها كمن يريد أن يبقى في الدنيا إلى الأبد.

أو (طالب الرئاسة) مثلاً فهو يطلب أمراً وهمياً، ويتحمّل كل تلك الصعوبات والأتعاب من أجلها، وتسلب منه حريته وراحته وهدوء باله، كلّ ذلك من أجل أيام معدودة من عمر متزلزل.

لماذا لا ينظر الإنسان إلى نهاية الأمر، حيث يؤدّي كرسي السلطنة إلى التابوت؟ فاعرف قدر عمرك، ثم اعمل جاهداً على الاستفادة منه.

الإنسان لا يعتقد بالموت والفناء، لأنّ القلب محجوب ولا يرى إلاّ ذاته وأهواءه، وهو في الحقيقة باقٍ في الحدّ الحيواني الذي لا يدرك العبرة، ولو زال الحجاب لأمكن لعين القلب أن ترى الحق وتعرفه، وبعد ذلك تطلبه فيسعى نحو رضا الله تعالى. ولكن ما دامت هذه الحجب تغطي القلب، فلا يمكن له أن يطلب الحق.

وقد ورد في كتاب (منية المريد) للشهيد الثاني حديث عن السيد المسيح عليه السلام يقول:

«ليس العلم في السماء فينزل إليكم، ولا في الأرضين فيخرج إليكم، ولكنه مجبول في نفوسكم، تأدبوا بآداب الروحانيين تجدوه».

فهناك عين في القلب ويجب رفع الحجاب والمانع عنها. كما في عين الماء المغطاة بالأتربة والأعشاب. ولذلك يقول عليه السلام: «**تأدبوا بآداب الروحانيين تجدوه**» أي أنّ الإنسان ما دام سائراً في طريق الأشخاص الماديين ومنحرفاً عن الروحانيين، فلا يمكن أن يحصل على العلم العائد إلى عالم المعنى والحقيقة والروح، فيجب أن تُزيلوا هذا المانع وتتأدبوا بآداب أهل المعنى والمعرفة حتى تجدوا العلم.

الإخلاص والعبودية وعيون الحكمة

وهناك رواية أخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**من أخلص لله أربعين صباحاً؛ جرَتْ ينابيع الحكمة من قلبه إلى لسانه**»[1].

فمن الممكن أن يقرأ الإنسان بعض الروايات والتفاسير والمواضع الأخرى ويحفظها، ثم يرددها كالشريط المسجل، فهذا العلم لا قيمة له، ولم ينبع من القلب، بل هو كما قلنا مثل الشريط المسجل، لأنه لم يتعلم سوى بعض الاصطلاحات العلمية. أما العلم الحقيقي فهو العلم الذي ينبع من القلب، بأن يفهم شيئاً ويحقّقه ويتأثر به. فلو أن أحداً عرف الله تعالى، فلا يمكن أن يرتكب أيّ عمل خلاف مرضاته، ولو ارتكب ذلك لاتّضح أنه لم يعرف الله معرفة قلبية وحقيقية.

ونقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي: «**إلهي لم أعْصِكَ حين عصيتُك وأنا برُبوبيّتك جاحد ولا لأمرك مُسْتَخِفٌّ**».

---

(١) كتاب عدة الداعي.

وعلامة ذلك أنه يندم بسرعة ويستغفر. فلو رأى الإنسان الله حاضراً وناظراً فحينئذٍ يكون السرّ والعلن عنده سواء، فلا يمكن أن يرتكب خلاف ما أمره الله به وفي حضوره.

وطبعاً هناك مراتب عديدة للعلم، ويحتاج معها إلى مجاهدة النفس حتى تموت الـ(أنا) فيزول الحجاب الأكبر، ويكون إنساناً إلهياً. وعلى الإنسان أن يحذر من هذه الأنانية، ولا يكون كالشيطان الذي قال (أنا) ورأى لنفسه وجوداً مستقلاً فأصبح من المطرودين.

لا تجتمع المعرفة مع الجهل بالواقع

على أيّ حال فطريق الله عز وجل لا يجتمع مع الجهل. فالشخص الذي يعرف نفسه بالعدم، كيف يمكن أن يجد الطريق إلى المعارف الإلهية؟

الأنانية والاستقلال ناشئين عن الجهل. فلو أردنا أن نتعرّف على التوحيد يجب أن نرفع أولاً هذا الحجاب، فنحن بحاجة إلى المجاهدة لكي نزيل الـ(أنا) فلا نطلب ذواتنا، بل نطلب الله. فأقبح أنواع الشرْك الباطني هو أن يرى الإنسان لنفسه وجوداً ولا يرى الله عز وجل، في حين أنّ ذاته بغض النظر عن الوجود هي أمر عدمي، وأما مع الوجود فهو مرتبط بالله وليس مع نفسه، وهذا المعنى يجب أن لا يكون بديهياً بالنسبة لنا «**إلهي أرنا الأشياء كما هي، وأزل الحجاب عن قلوبنا بقدرتك القاهرة، فلا مهرب ولا مفزع منك إلّا إليك**» ﴿**فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ**﴾ [الذاريات/ ٥٠].

اليقين الذي لا تزلزله الشكوك

جميع الكائنات في عالم الوجود هي آيات الله، فيجب أن ينظر إليها الإنسان على أنها آية ومرآة يرى بها الله، ولهذا يسمى عالم الوجود بالعالم لأنه «**يُعلم به الله**» أي نتعرف على الله من خلاله وبواسطته.

كلّ عالم الوجود هو كتاب لخالق العالم، وشاهد على علمه وقدرته، وهذه المعرفة

العقلية الاستدلالية ناقصة بالطبع، والمهم هو الوصول إلى الكمال، وهذه المعرفة العقلية تكون مقدمة لذلك، لأنها تسبّب الظنّ دون الاطمئنان واليقين.

على الإنسان أن يسعى للوصول إلى درجة العلم واليقين الذي تكون من آثاره السكينة والطمأنينة، ومن آثاره أيضاً أن لا يبقى معه أيّ شكٍّ أو ريبٍ لدى الإنسان.

النظر الاستقلالي والمرآتي

هناك نوعان من النظر إلى المرآة: نظر استقلالي ونظر مرآتي. النظر الاستقلالي هو أن ينظر المرء إلى المرآة من حيث ذاتها، كأن يريد أن يشتريها مثلاً، فهو ينظر إلى مساحتها وجودتها وغير ذلك، ففي هذه الحالة لا ينظر إلى صورته المنعكسة فيها، ويطلق عليه (فيه ينظر) اصطلاحاً.

أما النظر المرآتي فهو أن ينظر إلى المرآة ليرى فيها صورته، ولا علاقة له بنفس المرآة.

فالإنسان الذي ينظر إلى موجودات هذا العالم بالنظر الأول، أي النظر إلى ذاتها فقط، فسوف لا يرى الله، روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله في هذا الموضوع: «**من أبصر بها بصّرته، ومن أبصر إليها أعمته**»[1].

فكلّ من ينظر إلى الدنيا بنظر العبرة والبصيرة، وينظر إليها على أنها وسيلة إلى المعرفة والوصول إلى مرتبة الإنسانية، فسوف تبصّره وترشده إلى درجات الكمال. ولكن من ينظر إليها نظر العاشق لها ويريدها وقد اتخذها هدفاً له، وجعل همّه الوصول إلى الأمور المادية، فسوف تعميه عن رؤية الحقائق والواقعيات، وتؤدي إلى إضلاله وإماتة قلبه.

والكلمة الملفتة للنظر في كلام أمير المؤمنين عليه السلام هي «**بها وإليها**» حيث يجب التأمل فيها.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٨٢.

على أيّ حال فحبّ الدنيا واتّباع الشهوات وطلب الثروة وارتكاب المعاصي وعدم الالتزام بالدين، كلّ هذه الأمور تُقْعِد الإنسان عن الوصول إلى مقام المعرفة، إلى درجة أنّ كل معصية تكون بمثابة السهم الذي ينفذ في عين البصيرة، فكيف يمكن لهذا القلب أن يرى الله؟ فالذنب يُعمي (عين القلب) ويمنعها من رؤية الحقيقة مهما كانت واضحة وتحرمه من ذلك، وهذا المعنى يمكن فهمه جيداً من خلال الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «**النظرة سهم من سهام إبليس مسموم**»[1].

فلو أصبح القلب مظلماً بسبب كثرة الذنوب «**وأحاطت به خطيئته**» فسوف ينكر آيات الله، وينكر أوضح الحقائق، وهي وجود الله تعالى: ﴿**ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ**﴾ [الروم/ ١٠].

إذاً فالشخص الذي يطلب السعادة عليه حتماً أن يتّقي الذنوب ويبتعد عنها، ولو صادف أن صدر منه ذنب عليه أن يتوب منه فوراً «**اللّهُمّ اجعلنا من التوابين واجعلنا من المتطهرين**».

فيتّضح مما مرّ جواب هذا السؤال أيضاً: وهو: لماذا يكون حضور الله سبحانه وتعالى لدى بعض الأشخاص مشهوداً وأوضح من الشمس، ولدى البعض الآخر مبهماً ومشكوكاً؟

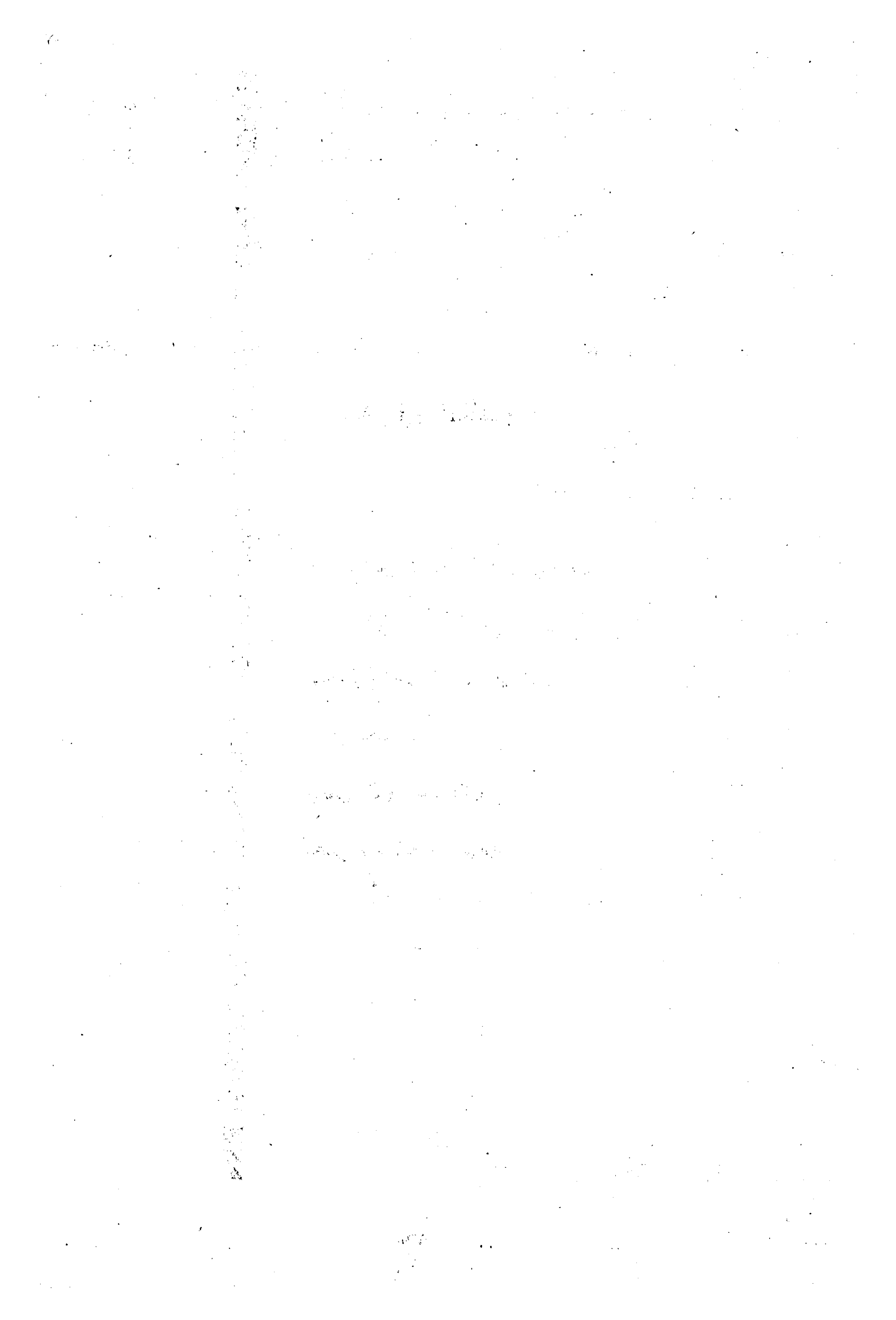
أجل، «**فالكنز لا يحصل عليه دون تعب**» فيجب تحمّل ترك الذنب والمجاهدة في طريق الحق، حتى يصل الإنسان إلى كنز المعرفة.

---

(١) سفينة البحار، المجلد ٢ ص ٥٩٦.

الفصل الثالث

- أهل اليقين هم ثمرة عالم الوجود
- اليقين هو الركن الثاني للإيمان
- بالتفكر والعبرة تصل إلى اليقين
- اليقين بعلم الله
- اليقين بالتوحيد الأفعالي
- اليقين بالولاية والإمامة



بسم الله الرحمن الرحيم

أهل اليقين هم ثمرة عالم الوجود

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾

[الواقعة/ ٩٥ و٩٦].

كلّ هذه المخلوقات الموجودة في العالم هي مخلوقة من أجل هداية الإنسان، وبعبارة أخرى إنّ المؤمن هو ثمرة عالم الوجود.

وردت في كتاب (أصول الكافي) رواية عن مولانا الصادق عليه السلام مخبراً عن الله عز وجل: «.. **لو لم يكن من خلقي في الأرض فيما بين المشرق والمغرب إلّا مؤمن واحد مع إمام عادل؛ لاستغنيت بهما عن جميع ما خلقت في أرضي، ولقامت سبع سماوات وأرضين بهما**»[1].

ويقول سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: **﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾** [الطلاق/ ١٢].

ففي هذه الآية الشريفة يصرِّح بأنّ الهدف من خلق السماوات والأرض هو التعرف على علم الله وقدرته اللامتناهية. فأهل العلم هم أهل الإيمان واليقين، أي التصديق مع الاطمئنان، فالإنسان الكامل هو الذي لا يوجد في قلبه أيّ شكٍ أو تردّد، ولا يتزلزل إيمانه عند مواجهة الشكوك، فهو قد آمن بوحدانية الله بشكلٍ لا يقبل

---

(١) ميزان الحكمة للري شهري: ج ١، ص ٣٣١، نقلاً عن الكافي للكليني.

الشك، واطمأن إلى وجود الجنّة والنار وتيقّن بذلك: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة/ ٤] وآمن بالجزاء على كل مثقال ذرّة من الخير أو الشرّ، وكانت هذه الأمور واضحة لديه مثل الشمس في رابعة النهار، حتى لو لم يكن يعرف شيئاً من القراءة أو الكتابة، لأنّ معنى اليقين ليس هو العلم الاصطلاحي، بل هو إشراق القلب بنور يزيل كلّ ظلمات الشك والريب عنه، وهذا هو العلم الذي ورد التأكيد عليه في الروايات بكثرة. فقد ورد: «**اطلبوا العلم ولو بالصين**» وقد ذكرت الصين على سبيل المثال لأنها كانت أبعد نقطة في ذلك الزمان.

أو يقول عليه السلام: «**الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع**».

فالمقصود من أهل العلم هنا هم أهل الإيمان، فالعالم هو الذي وصل إلى درجة اليقين، والمتعلم هو السائر على صراط اليقين، أو لا شيء من ذلك وهم الذين تركوا الله وتوجهوا إلى الدنيا وطلب الأهواء والشهوات المادية.

وهكذا نجد أنّ أهل اليقين قليلون جداً (كالكبريت الأحمر) ويكفي وجود فرد واحد من أهل اليقين في مدينة معيّنة لنزول البركات ودفع البلايا عن تلك المدينة، لأنّ الغاية من خلق العالم هي إيجاد مثل هؤلاء الأشخاص، ونذكر نماذج من هؤلاء:

النبي دانيال عليه السلام مع الوحش في البئر

ذكروا أن (نبوخذ نصّر) أخذ النبي دانيال عليه السلام وأمر بإلقائه في بئر عميقة، وكان قد وضع فيها أسداً مفترساً، وأمر بعد ذلك بإغلاق فوهة البئر، ومنع أيّ شخص من الاقتراب من ذلك المكان.

فأوحى الله تعالى إلى أحد الأنبياء في ذلك الوقت أن احمل الطعام إلى دانيال الموجود في المكان الفلاني، فعندما وصل ذلك النبي إلى البئر وأزال غطاء البئر رأى الأسد في قعر البئر، وهو جالس بكلّ خضوع واحترام أمام دانيال، وعندما أوصل

إليه الطعام، قال النبي دانيال عليه السلام: «**الحمد لله الذي لا ينسى من شكره**»[1].

فلو أن دانيال عليه السلام لم يكن على يقين بالله, فإنّ رؤية ذلك الأسد تكفي لإزهاق روحه، ولكنه من أهل اليقين، فهو يؤمن بأن الأسد أيضاً هو مخلوق عاجز من مخلوقات الله عز وجل، ولا يتحرّك حركة دون إذنه ومشيئته تعالى.

نور اليقين يهوّن مصيبات الدنيا

وتقرأ في دعاء ليلة النصف من شعبان: «.. **ومن اليقين ما يهوّن علينا به مصيبات الدنيا**».

فعندما يأتي نور اليقين، ويؤمن الإنسان بأنّ كل ما يصيبه هو من تقدير الله، وهو لا يكون إلّا خيراً له وصلاحاً، فإنّ هذا المعنى يعطي للإنسان الاطمئنان والسكينة، فتهون عليه مصيبات الدنيا، ويسهل الصبر عليها، وأيضاً يتّضح من هذه الفقرة من الدعاء أنّ الإيمان واليقين هو فيض وعطاء من الله عز وجل.

وقد ذكر هذا المعنى في (كتاب الكافي)تحت عنوان (باب في أن الإيمان موهبة من الله) ومن المعلوم أنّ الواجب على العبد هو السعي في تحصيل الإيمان حتى يعطيه الله ذلك)، أي أنه يجب عليه أن يطلب من الله أولاً حتى يتنوّر قلبه بنور اليقين.

الإيمان قابل للزيادة والنقصان

كثر البحث بين علماء الكلام على أنّ الإيمان هل يقبل الزيادة والنقصان أو لا؟ وقد ذهب المحققون إلى أن ظاهر الآيات والروايات هو أنّ الإيمان قابل للزيادة والنقصان، ومنها الآية الشريفة التي تقول: ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا**﴾ [الأنفال/ ٢].

---

(١) حياة القلوب: ج١/ ٢ ص ٢٦٤.

فهذه الآية تدل على أنّ الإيمان قابل للزيادة وقابل للنقصان أيضاً.

ويقول (المحقق الطوسي) عليه الرحمة: بأنّ اليقين يتعلّق بأمرين: أحدهما اليقين بالشيء، والآخر اليقين بعدم خلافه، وعلى كلّ حالٍ فاليقين هو انكشاف الشيء، والانكشاف والوضوح له عدّة مراتب، فلا شكّ في أن إيمان الأشخاص العاديين يختلف عن إيمان (سلمان الفارسي) مثلاً، بل وبناءً على الأحاديث الواردة في كتب الأخبار وفي (الصحيفة السجادية) و(بحار الأنوار) عن الإمام الصادقعليه السلام أن ليقين الأنبياء درجات أيضاً.

يقين الأنبياء ذو مراتب أيضاً

قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ عيسى ابن مريم كان يسير على الماء. فقال صلى الله عليه وآله: «**لو زاد يقيناً لمشى في الهواء**»[1].

فأين يقين الآخرين من يقين محمد صلى الله عليه وآله؟

والنبي إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ [البقرة/ ٢٦٠].

والإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً**»[2] فنفهم من ذلك مدى الفاصلة الموجودة بين إيمان النبي إبراهيم عليه السلام وإيمان الإمام علي عليه السلام.

وأئمتنا الاثنا عشر عليهم السلام أفضل من جميع الأنبياء باستثناء خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله ولعل أحد أسباب ذلك هو أن اليقين لديهم أكثر.

والخلاصة أنّ للإيمان واليقين مراتب عديدة. وهو قابل للزيادة والنقيصة، فهو في تغيّر مستمرٍ، فقد يكون في الصباح على شكل معيّن، ويتغير في المساء إلى شكل

---

(١) ميزان الحكمة: ج١٠، ص ٧٩٠.

(٢) ميزان الحكمة: ج١٠، ص ٧٩١.

آخر، فتارة يتصاعد ويشتدّ بحيث لا تؤثر عليه الشكوك إلى آخر ساعة من العمر، وكذلك العكس نعوذ بالله.

لكن كيف يزداد الإيمان وينقص؟

الخيرات تزيد الإيمان، والذنوب تنقصه

من الأمور التي توجب زيادة اليقين والإيمان: العبادة الخالصة، خاصة الجلوس مع الأخيار والأبرار وأصحاب اليقين، فكل عمل صالح يصدر من الإنسان خالصاً لوجه الله فقط من صلاة وصيام وذكر وقراءة قرآن وإنفاق وقضاء الحوائج وغيرها من الأعمال الصالحة فسوف يؤدي إلى زيادة وتقوية ذلك النور.

وعلى العكس من ذلك فكل عملٍ سيء، وحتى فعل المكروهات يؤثر في ذلك النور ويضعفه، وإن كان أكثر الناس لا يدرك ذلك إلّا القليل منهم، والشاهد على ذلك رواية تؤيد هذا المعنى مذكورة في أصول الكافي، نقلاً عن الإمام الصادق عليه السلام.

النور الذي أفلت من يد النبي يوسف عليه السلام

في آخر قصة النبي يوسف عليه السلام عندما دعا أباه يعقوب وإخوته إلى مصر، خرج النبي يوسف عليه السلام مع كبار رجال المملكة خارج المدينة إلى عدة فراسخ ليستقبل أباه وإخوته، وكانوا قد أجلسوا النبي يعقوب عليه السلام وأولاده في محل معيّن حتى اقترب الركب منهم، وهنا كان من اللائق أن ينزل النبي يوسف عليه السلام عن ظهر جواده احتراماً لأبيه بغضّ النظر عن مقام السلطنة الظاهرية، إلّا أن النبي يوسف عليه السلام لم ينزل عن فرسه، فقد ارتكب هنا ترك الأولى (فهو غير محرّم، ولكن كان من الأجدر به أن يفعل ذلك ولم يفعل).

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**أن يوسف لما قدم عليه الشيخ يعقوب، دخله الغرور وعزّ الملك، فلم ينزل إليه، فهبط عليه جبرائيل فقال: يا يوسف ابسط راحتك، فخرج منها نور ساطع، فصار في جو السماء، فقال يوسف: يا جبرائيل ما**

هذا النور الذي خرج من راحتي؟ فقال: نزعت النبوة من عقبك، عقوبة لك لمّا لم تنزل إلى الشيخ يعقوب فلا يكون في عقبك نبي»[1].

فعندما يكون لترك الأولى كلّ هذا الأثر الوضعي، فكيف بالمكروه والحرام؟ فليفكّر كل شخصٍ بأمره، ويحذر زوال نور الإيمـان من قلبه، وقد يزول عند الموت بنفخة واحدة من الشيطان، مع أنّ المفروض أن تكون القضية بالعكس، وهو أن يقوم هذا النور بطرد الشيطان عندما يهمّ بالاقتراب منه في حالة احتضار الموت.

والشاهد القرآني على ذلك هو قول الآية الشريفة: **﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾** [الروم/ ١٠].

فهنا يصرّح سبحانه وتعالى أنّ كثرة الذنوب والمعاصي تؤدي إلى فقدان الإيمان.

يا أمان الخائفين ويا ذا الأمن والأمان بك نستجير.

ماذا يكون حال الإنسان في ساعة الموت؟

عندما نقرأ (دعاء عديلة) نقول: «**اللّهُمَّ يا أرحم الراحمين إني أودعتك يقيني هذا وثبات ديني، وأنت خير مستودع، وقد أمرتنا بحفظ الودائع، فردّه عليّ وقت حضور موتي**».

يجب أن نحسّ بالألم أولاً حتى نبحث عن الدواء. وعندما يوجد الألم فالدواء موجود أيضاً، وإذا حصل الخوف فالأمن يحصل أيضاً، فعالم الوجود هو مظهر الكرم الإلهي، إلّا أنّ الطالب له قليل.

اليقين يزيل الحقد والعداوة

الحقد والحسد من النجاسات القلبية، ولكن (اليقين) الذي يزيل هذه

---

(١) تفسير الصافي للقمي: ج٣، ص ٤٧.

النجاسات قليل جداً كما يقول الإمـام الصادق عليه السلام: «**ما أوتي الناس أقلّ من اليقين**»[1].

وهذا اليقين هو اليقين بأنّ كل الأمور بيد الله. ومعه لا يبقى معنى للحسد والانزعاج من وجود المنافس والأفضل، أما لو لم يصدّق بأن الأمور مقدّرة صغيرها وكبيرها ونافعها وضارها، وأنه لا رادّ لمشيئة الله إذا أراد بأحدٍ خيراً أو شراً، فكيف يمكن إزالة الحسد والحقد عن الآخرين؟..

عندما يرى أنّ منافسه قد تقدّم عليه، يشتعل قلبه بنار الحسد لأنه يرى أنّ الأسباب هي المؤثرة لوحدها، ويتصوّر أن الحسد هو العلاج لذلك.

اليقين هو الركن الثاني للإيمان

كان الحديث حول كلام أمير المؤمنين عليه السلام في بين معنى الإيمان، والمقصود هنا طبعاً هو الإيمان الكامل حيث يقول عليه السلام: «**إنّ الله عز وجل جعل الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد**».

وقد تحدّثنا بما فيه الكفاية عن الركن الأول (الصبر). والآن نتحدث حول الركن الثاني للإيمان وهو (اليقين).

حصول الإيمان متوقف على اليقين، فما لم يصل الإنسان إلى درجة اليقين فلا إيمان له، وهو الإيمان الذي يصحبه الإنسان معه في العوالم الأخرى لينجيه من التزلزل والاضطراب، والذي يعطي صاحبه السكينة عندما يصل إلى حدّ اليقين.

ومن أجل التعرّف على معنى ومراتب اليقين ومراتبه ومتعلقه، ثم الطريق إليه وإلى زيادته ينبغي الرجوع إلى كتاب (القلب السليم).

---

(١) الكافي للكليني، ج٢، ص ٥١.

اليقين الصادق لا يزول

لقد عرّف العلماء معنى اليقين بأنه: اعتقاد ثابت وجازم مطابق للواقع، فكلّ عقيدة تحصل للإنسان وتكون مطابقة للواقع، ويكون جازماً بها وثابتاً أيضاً بحيث لا يعتريها الزوال تسمى باليقين.

قد يكون بعضكم لم يسافر إلى مكة، ولكن قد سمعتم بها بحيث حصل لديكم اليقين بذلك، ومن المستحيل أن يزول هذا الاعتقاد في يوم من الأيام.

والقليل جداً من الناس يحصل له اليقين بالله واليوم الآخر والجنة والنار، ذلك الاعتقاد الذي يستحيل أن يدخله الريب في أحد الأيام، والإيمان يجب أن يصل إلى مرحلة اليقين والاطمئنان بالعقائد الحقّة بحيث يستحيل عليه الزوال. فلو ضعف هذا الاعتقاد أو أصابه الشكّ يتّضح أنه لم يكن يقيناً من أول الأمر، لأنه لو كان هناك يقين فمن المحال أن يطرأ عليه الشك. فهو إيمان تقديري.

ومراتب اليقين التي أشير إليها من خلال الآيـات القرآنية بشكلٍ مجمل هي (علم اليقين) و(عين اليقين) و(حق اليقين) والبعض ذكروا اليقين التقليدي كمرتبة أولى، ولا أرى أنّ شرح هذه المطالب بالتفصيل يعود بالنفع على العموم، والطالب لها قليل أيضاً.

كفاية الظنّ الاطمئناني

الشيء المفيد هو أن أذكر المرتبة الأولى منه فقط، ولا علم لنا بوصولنا إلى هذه الدرجة الأولى منه.

وقد ذكر (الشيخ الأنصاري) هذه المرتبة في بحث الظن حيث قال: إنه وإن كان الظاهر من الأدلة هو وجوب تحصيل (علم اليقين) وأن يوصل المكلف نفسه إلى هذه المرتبة من العلم، إلّا أن العسر والحرج وغيرها من الأدلة التي تدلّ على أن اليقين قليل جداً ونادر الحصول؛ بل كما ورد في الروايات أنه (الكبريت الأحمر) فلا يوجد

في المسلمين أقل من اليقين، لذلك نقول بكفاية الظنّ الاطمئناني، فلا أقل من الوصول إلى الاطمئنان بالموت والسؤال والجواب في القبر والجنة والنار، والميزان والصراط، ولا يكون قلبك متردّداً في ذلك، بحيث يقال إنه من المحتمل ذلك، أو إذا كان كذلك فالله كريم.

هذا التردّد هو الكفر، فيجب أن تطمئنّ إلى وجود القيامة والحساب والكتاب والصراط والميزان والعقاب والثواب، بحيث لو خالفك الجميع في ذلك فسوف تبقى ثابتاً في عقيدتك. أما الوصول إلى مقام (علم اليقين) فهو مشكل واقعاً.

ولكن يمكنك الوصول إلى (الظن الاطمئناني) ببركة القرآن الكريم والموعظة والصبر، فتدخل السكينة إلى قلبك. ومن أراد وطلب الإيمان والسكينة فعليه أن يتحرّك ويدعو «**إلهي أعطني الإيمان**» كما تدعو لأمور دنياك، ولا تقل ما الداعي لذلك، فكلٌّ له نصيبه وما قدّر له من الدرجة، فالويل من عدم الإيمان الذي هو شياع الدنيا والآخرة، فاحفظ إيمانك واستعذ بالله من نفوذ الشك والريب إلى قلبك.

يجب أن يحصل لديك اطمئنان بكلّ واحدة من أصول العقائد والمعارف الإلهية، وما لم يحصل ذلك، فعليك أن تسعى جاهداً في طريق الحصول عليه.

الانتباه ضروري للمؤمن

ما أجمل هذه الكلمة من أمير المؤمنين علي عليه السلام عندما يوضح لنا طريق اليقين ويقول: «**واليقين على أربع شعب: تبصرة الفطنة، وتأوّل الحكمة، ومعرفة العبرة، وسنة الأولين**».

وإذا أردت أن تثبت الركن الثاني، فعليك أن تشحذ عقلك وذكاءك.

والفطنة تعني الذكاء والانتباه. فكم يجب أن تكون ذكياً في الأمور الدنيوية حتى لا يخدعك أحد؟ وأنت أيها التاجر كم تستعمل ذكاءك في معاملاتك المالية،

وتفكر جيداً في مختلف جوانب المعاملة، ثم تستشير الآخرين قبل أن تعقد الصفقة؟ فلو استعملت ذكاءك وتفكيرك بهذه الصورة في المعارف الإلهية والأمور الدينية؛ فسوف تصل إلى اليقين، ولكن الذي نجده أنه يفقد ذكاءه تماماً في مثل هذه الأمور، ولا يفكر أو يحذر من خدع الشيطان.

عليك أن تفكر كما كنت تفكر في أمورك الدنيوية، وانظر هل أنّ نفسك قد غلبتك، أو أن الشيطان قد أبعدك عن الله؟ ينبغي أن تكون ذكياً وفطناً.

بالتفكر والاعتبار تصل إلى اليقين

الدقة والتأمل ضروري في العمل وهو معنى (تأوّل الحكمة) الدقة توصلك إلى الحقيقة، فعليك بالتدقيق في أمورك وأخذ العبرة منها، فهي التي سوف تجعلك عارفاً بالله وبالآخرة، ولو لم تجعل من نفسك متغافلاً وأردت واقعاً أن تفهم، فالطريق واضح، والقرآن الكريم يقول: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران/ ١٩٠] فالله عزّ وجل قد أعطى للإنسان عقلاً، فهو يرى آيات الله في الليل والنهار، ولكن لا يعتبر ويعرض بوجهه عن ذلك، وينسى الله تعالى مع أنّ كل نبتة تنبت على الأرض تنادي وحده لا شريك له.

كلّ هذه الآيات الدنيوية من أجل تنبيه الإنسان من النوم والغفلة، إلّا أنه يمرّ عليها دون اعتناء.

درجات الإيمان وقلّة اليقين

عن الإمام الرضا عليه السلام: «**الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، ولم يقسم بين العباد شيء أقلّ من اليقين**».

ويسأل الراوي: وأي شيء اليقين؟ قال عليه السلام «**التوكل على الله، والتسليم إلى الله، والرضا بقضاء الله، والتفويض إلى الله**»[1].

ويقول العلامة المجلسي (ره) في شرح هذا الحديث نقلاً عن بعض المحققين: إنّ العلم والعبودية هما الهدف، وكلّ ما تراه وتسمعه في الكتب الدينية وكلمات العلماء وحكم الحكماء هو من أجل هذين الأمرين، وحتى بعثة الأنبياء ونزول الكتب السماوية هو من أجل ذلك، بل وحتى خلق السماوات والأرض وما فيها، ويكفي في بيان فضل العلم وشرفه هذه الآية الشريفة: ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا**﴾ [الطلاق/ ١٢] فقد بيّن سبحانه وتعالى في هذه الآية الشريفة أنّ الغرض من إيجاد العالم هو العلم بالله وقدرته وعلمه كما مرّ.

وكفى في بيان شرف العبادة وفضلها هذه الآية الشريفة: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات/ ٥٦].

والعلم والعبادة متلازمان، فهما لازم وملزوم، وكلّ منهما سبب للآخر ومسبّب، لأن العلم يسبّب زيادة العبادة، والعبادة تؤدي إلى زيادة العلم.

والمراد بالعلم هو الدين، أي معرفة الله والملائكة الذين هم وسائط الوحي، ومعرفة كتاب الله وهو القرآن، ومعرفة يوم القيامة كما صرّح بذلك في القرآن الكريم: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا**﴾ [النساء/ ١٣٦].

والإيمان متعلّق بالعلم، لأنّ الإيمان هو التصديق بواقع الشيء، ومن لوازم التصديق بالشيء تصوّره أولاً، وهذا التصور والتصديق هو العلم.

---

(١) أصول الكافي للكليني: كتاب الكفر والإيمان.

والكفر في مقابل الإيمان، ويعني إخفاء الحق وعدم التصديق به، وهو راجع إلى الجهل.

والإيمان في الشريعة يختصّ بالتصديق بالأمور المذكورة وهي الله والملائكة والكتب السماوية والأنبياء ويوم القيامة، إذاً فالعلم بها واجب، وهو المراد من قول رسول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**»، وهو مرتبط بمقدار قابلية الشخص طبعاً، لأنّ للعلم والإيمان درجات في القوة والضعف وفي الكثرة والقلّة، فبعضها أعلى من البعض الآخـر كما تدلّ على ذلك الروايات الكثيرة.

فاتضح أنّ الإيمان بمقدار العلم، والذي به تكون حياة القلوب، وهو ذلك النور الذي يضيء في القلب بسبب إزالة الحجاب بين العبد وربه، كما قال تعالى: ﴿**ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ**﴾ [البقرة/ ٢٥٧] وأيضاً: ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ [الأنعام/ ١٢٢].

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ليس العلم بكثرة التعلم إنما هو نور يقذفه في قلب من يريد أن يهديه**»[١].

وهذا النور كسائر الأنوار الأخرى قد يتعرّض للزيادة والنقصان والقوة والضعف، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا**﴾ [الأنفال/ ٢]. وقال أيضاً: ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا**﴾ [طه/ ١١٤].

وهكذا يزداد النور ويقوى الإيمان كلما زال الحجاب أكثر إلى أن يغطي النورُ القلب كلَّه، فيؤدي إلى انشراح الصدر وإدراك الحقائق والأمور الغيبية (ما وراء المادة والطبيعة) ويرى كلّ شيء على حقيقته.

---

(١) البحار للمجلسي: ج١، ص ٢٢٤، الحديث ١٧.

وهكذا يصدّق بما أخبر عنه الأنبياء عليهم السلام بمقدار ذلك النور وانشراح الصدر، فيحصل في قلبه ميل وإرادة للعمل بما أمروا به، وترك كلّ ما نهوا عنه، أي تحصل في قلبه ملكة التقوى. فيضاف إلى نور معرفته نور الأخلاق الجميلة والأعمال الفاضلة كما قال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [التحريم/ ٨] وكذلك قال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور/ ٣٥].

فكل عبادة يؤديها بشكلها الصحيح تزيد في القلب صفاءً وتجعله مستعداً لاكتساب النور وانشراح الصدر والحصول على المعرفة واليقين أكثر. وهذا النور يتطلب منه عبادة أخرى كذلك، وهي بدورها تزيد في نوره ومعرفته وانشراح صدره وتقوّي يقينه، وهكذا إلى ما شاء الله، والشاهد على ذلك من القرآن والأحاديث الشريفة كثير.

ومما ذكرنا يتّضح أن أول درجات الإيمان هو التصديق المشوب بالشكّ على اختلاف مراتبه. ويمكن أن يكون مخلوطاً بالشرك أيضاً كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف/ ١٠٦].

وغالباً ما يعبّر عن هذه المرتبة من الإيمان بالإسلام كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٤].

أما الدرجات المتوسطة من الإيمان فهي تلك المرتبة من التصديق الذي لا يخالطه أيّ شك أو شبهة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات/ ١٥].

وأكثر ما يطلق الإيمان على هذه الدرجة منه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال/ ٢].

أما أعلى درجات الإيمان فهو التصديق الخالي من الشكّ والشبهة مع إضافة الكشف والشهود إليه. أي الرؤية بالعين القلبية، والمحبّة الكاملة لله تعالى والشوق الشديد إليه كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة/ ٥٤].

وقد يطلق على هذه المرتبة من الإيمان باليقين كما قال تعالى: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة/ ٤]. ويطلق عليه الإحسان أيضاً كما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه**»[1].

وأشير لهذه المراتب الثلاث من الإيمان في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة/ ٩٣].

وكما أنّ الإيمان على ثلاث مراتب، فكذلك الكفر على ثلاث مراتب أيضاً في مقابل الإيمان حيث يشير سبحانه وتعالى إلى ذلك في هذه الآية الشريفة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء/ ١٣٧].

إذاً فنسبة الإحسان واليقين إلى الإيمان كنسبة الإيمان إلى الإسلام وكذلك فلليقين ثلاث مراتب وهي: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. كما أشير إلى ذلك في الآيات الشريفة: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر/ ٥-٧] سبق وأن ذكرنا مثالاً لهذه المراتب الثلاث، وهي: رؤية الدخان المتصاعد الذي يحصل معه (علم اليقين) بوجود النار،

(١) أصول الكافي للكليني.

ورؤية نفس النار الذي هو (عين اليقين). وأما (حق اليقين)، فهو الاحتراق بهذه النار الذي هو أعلى المراتب الثلاث، ولا يوجد أعلى منها. كما إنها غير قابلة للزيادة كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً**».

علامات اليقين بعلم الله

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/ ٢١] والدليل على ذلك يظهر من فعله: **﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾** [الملك/ ١٤] فكل ما تقوم به من أعمال، وكلّ مكان تذهب إليه، فإنّ الله معك ويراك ويعلم بك. والمسلم هو من يدرك بأنّ علم الله محيط به، وهو يعلم السرّ وأخفى، فإذا كنت على يقين بأنّ الله عالمٌ فسوف يؤثر ذلك على عملك كثيراً ويجعله في تحسّن مستمر.

يذكر (النيسابوري) في (تفسيره) قصة غلام حبشي جاء مع المسلمين من الحبشة وأسلم على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وتشهّد الشهادتين وأقر باليوم الآخر، وبعد ذلك تعلّم المسائل الدينية عند بعض الصحابة، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسأله: هل أنّ الله يعلم كل شيء؟ فقال صلى الله عليه وآله: **﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾** [طه/ ٧] فمكث قليلاً وهو يفكر، ثم قال: هل يعني هذا أنّ الله كان يراني عندما كنت أرتكب المعصية؟ فقال صلى الله عليه وآله: «بلى»، فصاح الغلام: وافضيحتاه. ثم وقع على الأرض وفارق الحياة. وهكذا يتأثر القلب السليم.

اليقين بالتوحيد الأفعالي

قلنا إن أقلّ الواجب هو أن يصل الإنسان إلى درجة الاطمئنان، بحيث يطمئن أنه لا إله إلّا الله، محمد رسول الله صلى الله عليه وآله. وأنّ الرزاق والمدبّر والمدير والمغيث والمحيي والمميت هو الله لا غير.

ومن مراتب التوحيد الأفعالي أن يكون مطمئن القلب، فلو خالفه جميع الناس في عقيدته يبقى راسخاً في عقيدته، ولا يصيبه التردّد. فلو كان الجميع

يتمسّكون بالأسباب الظاهرية، عليه أن يتمسّك بمسبّب الأسباب ويتوكل عليه، ويبقى مطمئناً إلى وجود الجزاء بعد الموت.

والإنسان يصل إلى اليقين بأربع طرق هي: الفطنة، والحكمة، والعبرة، وسيرة الماضين.

والفطنة هي الذكاء والنباهة، أما الحكمة فهي العلم بالحقائق والتمييز بين الباقي والفاني، والضار والنافع. والعبرة هي أن يستفيد مما يمرّ عليه من الحوادث والتجارب، فيترك ما ينبغي تركه، ويفعل ما ينبغي فعله. وكما يقول الحديث: «**المؤمن لا يلدغ من الجحر مرتين**» فهو يتّعظ بمجرد أن يصيبه شرّ من شيء معين، ولا يرتكب ذلك مرة أخرى. فمثلاً يرى أنّ مصير كل واحد من الناس هو الموت، فالشاب يموت والشيخ يموت وهكذا، إذاً فأنا أيضاً سوف أموت وعليَّ أن أهيّء وسائل السفر.

اليقين بالولاية والإمامة

بما أنّ اليوم يصادف ولادة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام كما ورد في الروايات الصحيحة، وذلك في السنة الثالثة أو الرابعة من الهجرة في المدينة المنورة. وبهذه المناسبة سيكون بحثنا هذا اليوم عن اليقين بالإمامة والولاية، وقد قلنا إنّ الركن الثاني للإيمان هو اليقين بالتوحيد الإلهي إلى اليقين بالمعاد.

وأحد شعب اليقين الواجب تحصيله على كل مسلم هو اليقين بالإمامة ووجوب اتباع الأنوار الطاهرة الاثني عشر عليهم السلام ومودّتهم وأولهم: علي بن أبي طالب، وآخرهم الحجة ابن الحسن عليه السلام فيجب على كل مكلّف أن يعتقد بإمامتهم بشكل قطعي ويقيني لا شكّ فيه.

وقد لوحظ أنّ بعض المسلمين الذين يفقدون هذا اليقين نراهم يتزلزل إيمانهم عندما يسافرون إلى بعض الدول غير الموالية لأهل البيت عليهم السلام أو يتأثرون بأدنى شبهة شيطانية.

علي عليه السلام إمام معيّن من الله

فقد يسمع مثلاً من يقول بأنكم تقولون: «أشهد أنّ علياً ولي الله» في حين أن الله ليس بعاجز حتى يحتاج إلى وليّ فكيف تقولون إنّ علياً ولي الله، وهو لا يحتاج إلى ولي؟ فيصدّق هذا المسكين بذلك. ولكن يجب أن تسأل أولاً أن من يقول أشهد أنّ علياً ولي الله ماذا يقصد بذلك؟ لا أحد يقصد أنّ علياً هو الولي على الله تعالى، ولعنة الله على من يقول بهذا، نحن نقول إنّ علياً ولي من قبل الله على المؤمنين، والله تعالى قد أعطاه الولاية على المؤمنين، فولي الله يعني من له الولاية الإلهية، والولاية من المحبّة، والإمام علي بن أبي طالب هو سيّد الأولياء.

لماذا لا يغسّل الشيعة أقدامهم عند الوضوء؟

الشخص الذي لم يصل إلى درجة اليقين سوف يتزلزل بأدنى شبهة مثل ذلك الجاهل الذي كان يقول بأن طريقة العامة في غسل أقدامهم عند الوضوء أحسن من طريقة الشيعة الذين يأتون إلى المسجد والرائحة الكريهة تفوح من أقدامهم؛ إذاً فالعامي على حق في مذهبه. فما أجهل هذا الشخص لأن الشيعة عندما يقولون بمسح الأقدام فإنهم يستندون بذلك إلى القرآن والسنّة، فالقرآن يقول: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ [المائدة/ ٦] وكذلك أمرنا أهل البيت عليهم السلام بذلك، أما أنتم فقد تمسّكتم بقول الشافعي وأبي حنيفة حيث قالا: (وأرجُلَكم). بفتح اللام معطوفاً على فاغسلوا، فيكون حكمها الغسل، أما نحن فنتبع ظاهر القرآن وأوامر أهل البيت عليهم السلام وأولئك أتباع أبي حنيفة، حشرهم الله مع أئمتهم.

والشيء الآخر هو أن غسل القدم للنظافة غير الوضوء، فالوضوء عمل خاص يراد به الطهارة المعنوية وليس الظاهرية، نعم يمكن أن يستتبع ذلك النظافة الظاهرية لبعض أعضاء الوضوء، ولكن ليس هو المقصود بالذات، وإلّا فالغسل بالصابون أفضل، فهل يصحّ أن نقول بوجوب الوضوء بالماء والصابون؟ فالواجب هو أن

نطيع الأمر بالوضوء إلى الحدّ المعين لإزالة الأوساخ المعنوية.

أما لو غسل الإنسان جسمه بقصد النظافة الجسدية فقط، لوقع غسله ووضوءه باطلاً، لأن النظافة الجسدية شيء آخر غير الوضوء أو الغسل. والواجب على كل مسلم أن يكون جسمه نظيفاً فـ«**النظافة من الإيمان**» خصوصاً في أماكن تجمّع المسلمين، ويستحب استعمال العطر عند الدخول إلى المسجد، وهذا الشيء لا ربط له بالوضوء، وهكذا بالنسبة إلى غسل الأرجل فهو أمر حسنٌ دائماً حتى تزول عنها الرائحة الكريهة، ولا يسبب إزعاج الآخرين، ولكن هذا لا يعني أنه سوف تحصل الطهارة المعنوية بذلك.

دعاء الحزين لتثبيت الإيمان

فما لم يصل الإنسان إلى اليقين، فإنه قد ينحرف بأمر تافه من أمور الدنيا، خاصة إذا تمكّن حبّ الرئاسة في قلبه لا سمح الله. فعليكم بدعاء الحزين وهو الدعاء الوارد عن الإمام الرضا عليه السلام عندما قال إن الإنسان في آخر الزمان يصبح مؤمناً ويمسي فاقداً لدينه.

ويسأله الراوي: يا بن رسول الله، ماذا تصنع لو كنا في ذلك الزمان؟ فقال: «عليكم بالدعاء الحزين: يا الله يا رحمن يا رحيم، يا مقلّب القلوب، ثبّت قلبي على دينك»[1].

وبما أنّ هذا اليوم هو يوم ميلاد الإمام الحسن عليه السلام الإمام الثاني الواجب الطاعة، وأحد أوصياء رسول الله الاثني عشر، الذين هم سفينة النجاة.

وليس المهم هو البكاء على الإمام الحسن عليه السلام فقط وذكر ظُلامته وإقامة المآتم عليه، بل يجب أن يعلم أنهم الأئمة الهادون والأوصياء على الخلق جميعاً. وهم الأنوار

(١) مفاتيح الجنان: ص ٢٣.

الإلهية التي يهتدي الناس بها إلى الصراط المستقيم، وبهدايتهم يهتدي الآخرون، فالصراط المستقيم وطريق السعادة هو السير في طريق أمير المؤمنين علي عليه السلام والأئمة الأحد عشر من بعده، فلو انحرف أحد عن هذا الطريق؛ فقد انحرف عن الإسلام الحقيقي.

اليقين لا يحصل دون تعب

عندما تكون مرتبة اليقين والإيمان الكامل هي التي تجعل الإنسان يذهب من الدنيا وهو في عداد المؤمنين ويحشر معهم، فهذا بحاجة إلى تعب وصبر، لذا على الإنسان أن يتحرّك، فعندما تريد أن تنال ذلك المقام فانظر إلى طلاب الرئاسة والمقام الدنيوي كيف يعملون جاهدين ويتحمّلون الصعوبات في هذا الطريق في الليل والنهار، ولا يبخلون في سبيل ذلك بالأموال والأعمار. وهكذا من يطلب كرسي الوزارة أو النيابة وغيرها، وأنت تريد أن تصل إلى مقام تكون فيه مع محمد وآل محمد عليهم السلام فوق منابر من نور في الجنة، فكيف يتسنّى لك ذلك مع الكسل وطلب الراحة؟

وانظر إلى الأشخاص الذين طلبوا مقام اليقين والإيمان الكامل ليكونوا من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام ويسكنوا إلى جواره، كم عملوا وجاهدوا في سبيل ذلك ليصلوا إلى ما وصل إليه سلمان وأبو ذرّ وغيرهما.

المواظبة على العِبرة لتحصيل اليقين

فالطريق إلى تحصيل اليقين هو (العِبرة). ولا يكون ذلك ليوم واحد أو يومين: بل منذ خروجك من البيت وإلى أن ترجع يجب أن يكون ذهابك وإيابك مصحوباً بالاعتبار من كلِّ ما يقع نظرك عليه.

فمثلاً عندما يقع نظرك على امرأة سافرة ومتبرّجة فتذكر الساعة التي تكون فيها هذه المسكينة في الكفن. وتذكر كيف يخلعون عنها كل هذه الملابس

ويستبدلونها بالكفن. وعندما ترى وجهها فتذكر كيف سيضعونه على تراب القبر، وأول ما تأكل الديدان من الميت هو عينه التي يخون بها.

وعلى أيّ حال فالمهم هو أن لا يترك الإنسان الاعتبار.

ابنا آدم عليه السلام عبرة لبني آدم

أيها الطالب لليقين عليك أن تتمسّك بسيرة الأولين كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**من نجا إنما نجا بطاعة الله، ومن هلك إنما هلك بمعصية الله**»[1].

فانظر إلى من كان قبلك، وانظر إلى الخلق من أولهم حيث لم يكن سوى آدم أبي البشر وأبنائه، كيف أنّ أحد ولَدَيْه نجا والآخر هلك. فأصبح هابيل من أهل السعادة، بينما أصبح قابيل ملعوناً مطروداً، وكان نصيبه الهلاك الأبدي مع إنهما ابنان لنبي واحد.

ويذكر القرآن الكريم قصة هذين الأخوين، وكيف أصبح كلّ منهما كذلك ليكونا عبرة لبني البشر إلى الأبد.

فالحسد الدفين دفعه إلى أن يرفع حجراً ويقتل أخاه. فماذا كانت النتيجة؟

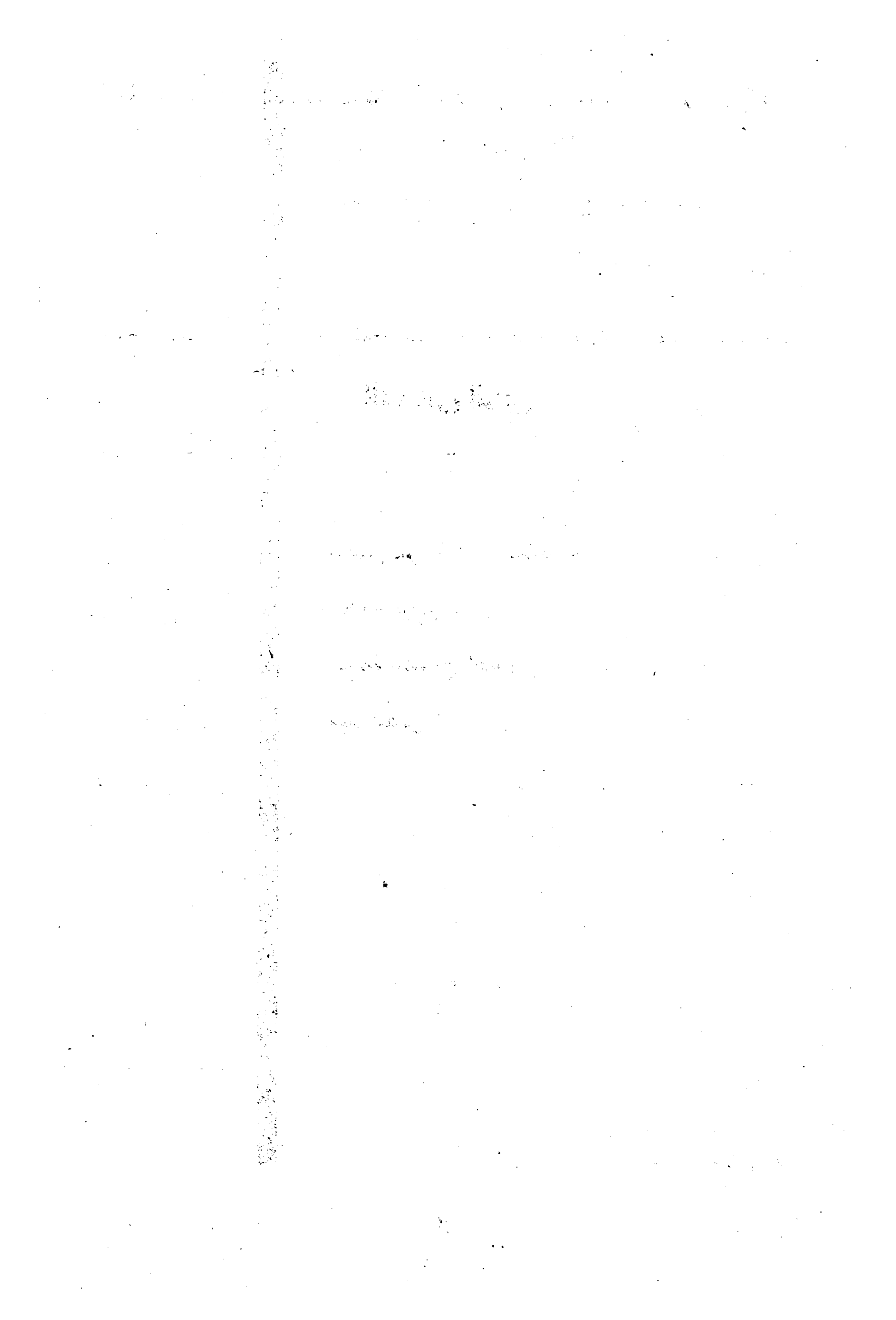
أيها الإخوة والأخوات لا يحسد أحدكما الآخر، وأنت يا من تحسد رفيقك على تقدّمه عليك أو على حصوله على الأموال الطائلة، انظر إلى عاقبتها ونهايتها. والحسد لا يبقى حسداً فحسب، بل يجرّ إلى المعاصي والذنوب، فإذا عالجه الإنسان ومنعه من النفوذ إلى قلبه لما أصيب بكلّ هذا البلاء.

* * *

(١) أصول الكافي للكليني.

الفصل الرابع

- اليقين بتربية الله ومساعدته
- علامة اليقين
- علامة انشراح الصدر
- حدّ اليقين



بسم الله الرحمن الرحيم

اليقين بتربية الله ومساعدته

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[سورة النحل/ ٩٧].

كان بحثنا حول التوحيد، وقد ذكرنا بعض الأمور التي تدلّ على شرف التوحيد وفضيلته، ونتحدث هنا عن التوحيد في الألوهية والربوبية ودرجاتها.

(الله) اسم جامع لجميع الصفات الكمالية، فعندما تقول (الله ربي) فهذا يعني أنّ وجودي وتربيتي منه بالتفصيل المتقدم، فروحي في قبضته، وجوعي وشبعي منه أيضاً، وكلّ شأنٍ من شؤوني، وجميع أجزاء بدني منه تعالى، وهكذا الملبس والزوجة والأولاد.

والإيمان بالله يعني الاعتراف به وبنعمه، فهو المنعم والقيّوم (الحي القيوم) يعني أنّ قوام جميع الكائنات بالله تعالى، ووجودها مرتبط بالله.

وكلّ عاقل عندما يلتفت إلى وجوده يفهم أنه موجود، فلا يمكن له أن ينكر وجود نفسه، وهذا الوجود لم يكن قبل قرن من الزمان، فكيف وجد بعد ذلك؟

هل أنّ الذي أعطاك الوجود جعلك مستقلاً؟ إذا كنت مستقلاً فادفع عن نفسك الموت. إذاً يتّضح من ذلك أن وجودك ليس منك.

عندما تأكل لقمة الطعام وتدخل إلى جوفك وتعمل المعدة على هضمها، فهل أنت الذي قد دفعت الجهاز الهضمي من المعدة والأمعاء والكبد والقلب إلى العمل؟

وهل أنت الذي خلقت هذا الدم وجعلته في (٣٦٠) شرياناً، وحركته ليصل إلى جميع أعضاء بدنك. أو أنّ آخـر هو الذي خلق لك ذلك. وهو الذي خلق روحك وبدنك وربّاك؟

والخلاصة أنّ كلّ عاقل يفهم أن وجوده ليس منه، وإنما هو من غيره.

اليقين بعون الله

من الواجب أيضاً أن يتيقّن الإنسان بأنّ ربه معه دائماً وفي أي مكان، ويؤكد الإسلام على قراءة القرآن في الليل والنهار ويقول: **﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾** [المزمل/ ٢٠] في موضعين من سورة المزمل، ومن أجل عدم التكليف الذي يؤدي إلى العسر والحرج اكتفى بقراءة ما تيسّر منه، ولم يعيّن مقداراً محدداً من القراءة في كلّ يوم. كلّ ذلك لماذا؟ لأنّ قراءة القرآن باستمرار تذكّر الإنسان دائماً بالتوحيد، ويقول سبحانه وتعالى: **﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾** [الحديد/ ٤]. يعني أيها المسلم يجب أن تعلم بأن الله يراك أينما تذهب.

ويقول في آية أخرى: **﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾** [المجادلة/ ٧]، و **﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾** [الطلاق/ ١٢]، و **﴿أَلَا إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾** [فصلت/ ٥٤].

هذا هو معنى التوحيد. فكون الإنسان مسلماً لا يعني أن يقول (الله واحد) وكفى، وإنما المسـلم هو الذي يرى الله حـاضراً وناظراً في كلّ مكان، ويعتـقد بأنه هو القيوم والربّ والرزاق والمربّي له: **﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾** [الرحمن/ ٤٦].

فلو أصبحت إنساناً مسلماً وأحسست في قلبك بأنّ الله يراك، فلم ترتكب المعصيـة في حضوره، فسوف يُعطيك يوم القيـامة جنّتين، إحداهما في مقابل

عقيدتك والأخرى في مقابل عملك. فالمسلم الحقيقي يعيش حياة أخرى ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل/ ٩٧].

ويذكر القرآن الكريم هذه الحياة في عدة مواضع، بينما يبقى الشخص عديم الإيمان في مرتبة الحيوان.

وعندما يحصل الإنسان على نور الإيمان، فسوف يحسّ بحياة جديدة، وحركة جديدة، ويقول عنه القرآن الكريم إنه : ﴿ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان/ ٢٢]. حيث يحسّ بقوة تسري في قلبه.

أما غير المؤمن فهو ذليل في مقابل أدنى شهوة ومال، وخصوصاً للرئاسة والمنصب، لأنه لا يمتنع عن أي خيانة في سبيل هذه المطامع الرخيصة.

أما المؤمن فهو عزيز بعزّة الله تعالى، وهو الذي يسعى بعد إيمانه إلى زيادة هذا الإيمان وتقويته بالمواظبة على صلاته اليومية، وقراءة القرآن حتى يترسّخ الإيمان في قلبه.

إيمان ساعة واحدة يمنع عن الفحشاء

وأذكر لكم شاهداً على ذلك. كان أحد الأشخاص في أوائل بعثة الرسول الأكرم ﷺ واسمه (فضالة بن عمير) كان هذا الرجل عالماً، لكنه إنسان فاسق، وفي البداية كان يسيء الظنّ برسول الله ﷺ إلى درجة أنه قرر قتل رسول الله ﷺ غيلة.

وعندما دخل المسجد الحرام لقي رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: أنت فضالة؟ قال: نعم. فقال ﷺ: «ماذا قصدت؟» وأراد بذلك أن يفهمه بأنك تقصد قتلي، إلّا أن فضالة قال: جئت أبتغي الطواف. فتبسّم رسول الله ﷺ وقال ما معناه: «استغفر الله وتب إليه، إنّ القتل من عمل الوحوش».

فلما سمع ذلك، ارتعد قلبه فوضع رسول الله ﷺ يده على قلبه، فسكن وقال لوقته: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً رسول الله. وآمن إيماناً حقيقياً.

من هنا نفهم حقيقة الإيمان والمؤمن.. فليس الإيمان أن يقول الرجل إنني مسلم، ثم يقتل المسلمين: .. عندما يقول الشخص: (لاإله إلا الله) فهذا يعني أنني منذ الآن إنسان ملتزم بالدين و(إنّا لله وإنّا إليه راجعون) تعني أنني مسؤول. ولو صدر منّي ذنب فسوف أحاسب عليه عندما أقف بين يدي الله.

هل تتصوّر أن المسألة تنتهي بقولك: (لا إله إلا الله؟) كل الدين يتلخص في هذه الكلمة، ولكنّ أكثر المسلمين لم يحققوا في أنفسهم معنى العبودية، ولم يحسّوا بالمسؤولية.

المهم إنّ هذا الرجل بعد أن أسلم وآمن، خرج يسير في أزقة مكة، وكانت له عشيقة من فواحش مكة، وكان على علاقة بها في السابق، فبينما هو كذلك إذ يرى عشيقته في طريقه، فما كان منه إلّا أن أدار وجهه عنها، ولم يكرر إليها النظر.

فنادته المرأة: ما بالك يا فضالة؟ قال: لقد انتهى ما كان بيننا. ولقد سرت في طريق يختلف عن طريقك. قالت: وماذا صنعت؟ قال: لقد اتبعت محمداً. ومن يتبع محمداً فلا يقترب من الفاحشة.

وهكذا يحسّ الإنسان بقدرة الله فوقه عندما يصبح مؤمناً.

موقف المهاجرين عند النجاشي

في بداية الإسلام كان المسلمون في ضيق شديد من المشركين، فاضطروا للهجرة إلى الحبشة. فلما وصلوا إلى الحبشة التجأوا إلى (النجاشي) ملك الحبشة فقبلهم وأكرمهم، فأرسلت قريش (عمرو بن العاص) و(عمارة) إلى النجاشي ليستردّوا المسلمين من النجاشي.

وصل (عمرو بن العاص) ورفيقه إلى الحبشة، ودخلوا على النجاشي، فجلس عمرو إلى يمينه، وعمارة إلى يساره.

وكان من جملة تقاليد أهل الحبشة أنهم إذا دخلوا على الملك سجدوا له احتراماً، لهذا سجد عمرو بن العاص ورفيقه عند باب المجلس، ثم جلسا بعد ذلك.

بعدها دخل (جعفر بن أبي طالب) وجماعة المسلمين وقالوا: (السلام على من اتبع الهدى). ثم دخلوا إلى المجلس وجلسوا بدون أيّ انحناء أمام الملك، فقال عمرو ابن العاص: أيها الملك، ألم أقل لكم إنّ هؤلاء من الأعداء، ألا ترون أنهم لم يسجدوا عند دخولهم؟ فإما أن تقتلهم أو تدفعهم إلينا لنقتلهم.

فقال النجاشي: لنسألهم لماذا لم يلتزموا بتقاليد الملوك وآدابهم؟ فسألوا (جعفر) عن سبب ذلك.

فقال: نحن مسلمون ولا يحقّ للمسلم أن يسسجد لغير الله. وما هو قدر الملك حتى نسجد له، فهو بشر وعاجز مثلنا، وكلنا من تراب، وكلنا خاضعون لقدرة الله، وسوف نقف بين يدي محكمته العادلة جميعاً. فالسجود لغير الله حرام على المسلمين.

وهكذا دخل الخوف في قلب النجاشي، بهذه الكلمات، وأطرق يفكر. فالإسلام الذي يقوله هؤلاء هو الدين الحقيقي، وظهرت له الحقيقة حتى أنه أسلم بعد ذلك. وكلما حاول عمرو بن العاص ورفيقه إقناع النجاشي ليدفع لهما هؤلاء النفر من المسلمين لم يقبل، بل زاد في إكرامهم وهيأ لهم بيتاً لسكناهم.

فالحياة الطيبة هي حياة الإيمان، حيث يقف المؤمن بكلّ ثقة ولا يتراجع ولا يذل نفسه في مقابل لذّة رخيصة، أو يخضع هرباً من تحمل المشقة، ولا يترك الحق مهما كلّفه ذلك، فهو مستعد لأن يترك المال والأهل والرئاسة والشهرة وغيرها من ملذات الدنيا في سبيل الله، ثم يصبر على الألم ولو كلّفه ذلك حياته.

سحرة فرعون وقدرة الإيمان

كان سحرة فرعون سبعين نفراً. وكان عملهم السحر، وقد وعدهم فرعون بمنحهم مناصب مهمة إذا تمكنوا من التغلّب على موسى. وعندما ألقى موسى عصاه، وابتلعت كلّ سحرهم وحبالهم، أدركوا بأنّ موسى على حق، وظهرت في ذلك الوقت عزّة موسى، وفوجىء فرعون بذلك، حيث كان يتوقع غلبة السحرة لموسى، إلّا أن السحرة

آمنوا بموسى، وتمرّدوا على فرعون، فأمر بإحضارهم وقال لهم: كيف آمنتم به قبل أن آذن لكم؟ وما علمت لكم من إله غيري[1].

قالوا: لقد آمنا بربّ العالمين، ولا علاقة لنا بك بعد الآن. فلما رأى أن وعوده لم تؤثر فيهم، استعمل جانب التهديد وقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه/ ٧١].

فقالوا: ما تقول؟ أتهددنا بالقتل، والقتل في سبيل الله سعادة، فافعل ما بدا لك: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه/ ٧٢] وسوف نصبر على ذلك، ولن نتراجع أمام تخويفك وتهديدك.

إحراق المؤمنين وهم أحياء

يحكي لنا القرآن في (سورة المعارج) قصة (أصحاب الأخدود) حيث أرسل الله إليهم رسولاً، فآمن به بعض الناس، فلما علم بذلك المَلك أمر بأن يُحفر لهم خندق كبير (أخدود) وأُشعلت فيه النار (النار ذات الوقود) ثم جيء بهم، حيث قُتل ذلك النبي وألقيَ في النار، ثم كان يأتي بواحد واحد من المسلمين، فيسأله الملك من إلهك وإله العالمين، الله أم الملك؟

فإن قال: الله ربي. أمر بإلقائه في ذلك الخندق.

وإن قال الملك: أطلقوا سراحه ورجع إلى بيته.

فكان المؤمنون منهم يسيرون إلى النار بأقدامهم ويلقون بأنفسهم فيها.

حتى ورد في أحد الروايات أنه أُلقي بعشرين ألف من المسلمين في النار.

وجاء في التفسير أنّ امرأة كان لها ولد عمره سنتان، فجاء دور هذه المرأة المسكينة وخيّروها بين عبادة الله وإلقائها في النار، وبين الإقرار بألوهية الملك فيطلق سراحها.

---

(١) إشارة إلى الآية ٤٩ من سورة الشعراء، والآية ٣٨ من سورة القصص.

وفي البداية صممت على إلقاء نفسها في النار، إلّا أنها نظرت إلى ولدها وحنّت عليه، فترددت قليلاً، فما كان من الطفل إلّا أن نطق بإذن الله وقال: يا أماه اصبري فإنك على حق[1].

(من الأطفال الذين تكلموا في المهد المسيح عليه السلام ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾ [آل عمران/ ٤٦]. والآخر هو هذا الطفل من أصحاب الأخدود).

ليت أنّ الإنسان يمتلك ما هو أعزّ من الروح فيقدمه في سبيل الله، كما قال أحد شهداء كربلاء للإمام الحسين عليه السلام: يا بن رسول الله ليتني قتلت، ثم بُعثت، ثم قُتلت، وهكذا يُصنع بي سبعين مرة لما فارقتك، فكيف وهي قتلة واحدة؟

علامة اليقين

وأذكر رواية شريفة أخرى واردة في (أصول الكافي) تتعلق بهذا الموضوع وهي أنّ رسول الله عليه السلام صلّى بالناس صلاة الصبح. فنظر إلى شابٍ في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه مصفّراً لونه، قد نحف جسمه، وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «كيف أصبحت يا فلان؟».

فقال: أصبحت يا رسول الله موقناً.

فعجب رسول الله عليه السلام من قوله وقال: «إنّ لكلّ يقينٍ حقيقة، فما حقيقة يقينك؟».

فقال: «إن يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري، فعرفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتى كأني أنظر إلى عرش ربي وقد نُصب للحساب، وحُشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتنعّمون في الجنة ويتعارفون وعلى الأرائك يتكئون، وكأني أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذّبون مصطرخون، وكأني الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي.

---

(١) تفسير الصافي: ج٥، ص ٣١١.

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**هذا عبدٌ نوّر الله قلبه بالإيمان**» ثم قال له: «**الزم ما أنت عليه**»[1].

علامات انشراح الصدر

إنّ الركن الثاني للإيمان هو اليقين، وهو النور الذي يلقيه الله في قلب من يشاء، وقد ورد التعبير عنه في بعض الروايات بشرح الصدر.

فقد ورد في كتاب (مجمع البيان) وغيره من كتب الأخبار والتفاسير أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن معنى شرح الصدر، فقال رسول الله ﷺ: «**نور يقذفه الله في قلب المؤمن فيشرح له صدره وينفسخ**».

فقالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟

فقال ﷺ: «نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل حلول الفوت»[2].

علينا أن نطبّق هذه العلامات على أنفسنا، فإن كنت تجد في نفسك الابتعاد عن الدنيا وعدم الرغبة في دار الغرور والشهوات، وكان قلبك يخفق للآخرة وما يجري عليك بعد الموت، ومع أيّ قسم من الناس سيكون حشرك، هل سيكون مع أصحاب اليمين، أم مع أصحاب الشمال؟ فهذه علامة (نور اليقين) وعندئذٍ تصغر الدنيا في عينه، ويرى تفاهة ملذّاتها وشهواتها المادية، والتي أغرقت الناس في أوحالها، وجعلتهم يتكالبون ويتصارعون على حطامها، فكل ذلك بسبب قلّة العقل وظلمة القلب، فإذا دخل النور إلى القلب فسوف يكبر وتصبح هذه الأمور أمامه صغيرة وتافهة.

---

(١) الكافي للكليني: ج٢، ص ٤٤، وتتمة الحديث أنّ الشاب قال: ادع لي يا رسول الله أن أرزق الشهادة معك. فدعا له رسول الله ﷺ فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي ﷺ فاستشهد بعد تسعة نفر، وكان هو العاشر.

(٢) مجمع البيان للطبرسي، ج٢ تفسير سورة الأنعام ص ١٤٥.

فعندما نرى البعض يقاطع أرحامه فذلك يرجع إلى إعطاء الأهمية للأمور الدينية، كما هو حال الأطفال عندما يقع بينهم النزاع على بعض الأشياء الجزئية وأدوات اللعب.

الشهادة دون علم لا تنفع

الشهادة دون علم لا تفيد شيئاً، فيجب أن يعلم بقلبه يقيناً بأنه لا إله إلّا الله، ثم بعد ذلك يشهد الشهادة بلسانه. وهذا يكون لمن كانت فطرته سليمة، لأنّ الله تعالى ليس بجسمٍ حتى يُرى بالعين الجسمية؛ بل يرى بعين القلب والبصيرة التي هي أقوى من العين الظاهرية كثيراً، فالشهادة تعني أنني أشهد على يقين أنّ السماوات والأرض والأجرام الأخرى في عالم المادة وما وراء عالم المادة لها خالق واحد.

إنّ القدرة التي تحرّك هذه الأفلاك هي قدرة واحدة، والجميع تحت سيطرة إرادة وحكم إله واحد، وهذا هو معنى التوحيد والعبودية لله تعالى. أي أن يدرك الإنسان حقيقته، ولهذا أقسم الله عزّ جل أن لا يخلّد الموحد في النار، كما أن الكافر والمشرك لا يرى الجنة أبداً.

وهكذا نجد أهمية التوحيد، حتى أنّ السيدة الزهراء عليها السلام تقول: «**وأنار في التفكر معقولها**» ويعني أنّه لو أدرك حقيقة التوحيد، لاكتسب نوراً عظيماً، ولكانت أفكاره نورانية. فكل ما يدركه يجده نوراً، وكلّ ما صدر منه من فعل أو قول كان نوراً على نور، لأنها صادرة من أفكاره.

كما أنّ الشخص الذي لم يدرك حقيقة التوحيد، ولم يفهم أوضح الحقائق فإنّ كل ما يكتبه ويصدر عنه إنما هو تخيّلات وأوهام وظلمات، وأمثال هذه الكتب التي تصل إلينا من الخارج حتى أنها تؤثر فيك إذا قرأتها وتجعل قلبك مظلماً.

ولنرجع إلى أصل المطلب، فالشهادة بدون علم لا تنفع، يقول عزّ من قائل:

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد/ ١٩].

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران/ ١٨].

وعلى أي حالٍ لا بدّ وأن يكون على يقينٍ بما شهد، وأن يرى بعين البصيرة. ولبيان أهمية الشهادة بالوحدانية يذكر الشهيد الثاني (عليه الرحمة) في (شرح اللمعة)، روايـة عن رسول الله ﷺ أنـه قـال: «**من كان آخر كلامـــه لا له إلّا الله دخل الجنة**».

والسيدة الزهراء عليها السلام أيضاً تشهد بالوحدانية، وتبين معارف التوحيد بقولها: «**كلمة جعل الإخلاص تأويلها**» أي كلمة (لا إله إلا الله) فحقيقتها وتأويلها الباطني هو الإخلاص، فإذا كان القول والعمل مصحوباً بالإخلاص فالجنة هي الثواب وإلّا فلا. فإن الظواهر لا قيمة لها، فإن لم يكن المرء مخلصاً، لم يكن موحداً.

«**واليقين على أربع شعب: على تبصرة الفطنة، وتأول الحكمة، وموعظة العبرة، وسُنّة الأولين**».

«**فطنة المؤمن في رؤية العواقب**».

من أين ينشأ اليقين؟ إنّ له طرقاً أربع: أولها الفطنة، وثانيها الحكمة، وثالثها العبرة، ورابعها العلم بسُنّة الأولين. وقلنا إنّ الفطنة تعني الذكاء، والحكمة تعني الدقّة في الأمور، كما نرى أهل الدنيا وكيفية دقتهم في المعاملات الدنيوية، فلو كان هذا الذكاء والدقة منصرفاً إلى الأمور الروحية من معرفة الله والحقائق الأخرى، فذلك يعني الفطنة.

ورُوي عن رسـول الله ﷺ في معنى الكيـاسـة: «**المؤمن كيّس**» و«**إنّ الرجـل قد يكون كيِّساً في أمر الدنيا فيقال: ما أكيس فلاناً. وإنما الكيِّس كيِّس الآخـرة**»[1].

الكياسة لا تكون إلّا لعلي عليه السلام وشيعة علي عليه السلام ممن فهموا الدنيا على حقيقتها، وأنها لا شيء.

---

(١) ميزان الحكمة للري شهري، ج٨، ص ٤٦١ وبحار الأنوار للمجلسي، ج٧٧، ص ٧٩.

وروي عن رسول الله ﷺ: «**الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت**»[1].

فبَيْتُك بعد الموت هو الذي صنعته بيدك، وتتناسب سعة هذا البيت في البرزخ ويوم القيامة مع مقدار أعمالك.

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلّا التي كان قبــل الموت بانيها

فلا بدَّ أن تفكر من الآن في بيتك في القبر والبرزخ، وماذا أعددت له، فإن كان قبرك بيتاً من بيوت الجنة، فأنت في نعمةٍ دائمة، وإلّا فحفرةٌ من حفر النيران.

الإيمان بالله عن فطنة

الفطن هو العاقل الذي يرى العاقبة، وينظر إلى الوقت الذي يُحمل بجنازته حيث لا ينفعه مدح فلان أو ذمه، فكن فطناً واعرف أنك مخلوق، وأنّ لك خالقاً وصانعاً.

وينبغي أن يكون الاعتقاد عن عقلٍ لا عن تقليد، وإلّا فحتى لو حصل على إيمان عن طريق التقليد، فإنه يكون ضعيفاً يزول بأدنى شبهة.

الرزاق الذي كان يرزقك وأنت في المهد، هو الذي يرزقك اليوم من طريق آخر، فلماذا تبتئس وتحرص وتتصوّر أنّ نفقتك ونفقة عيالك على كاهلك كمن لا ربّ له، منْ الرازق ومَنْ مدبّر الأمور؟ أنت مخلوق ومرزوق ومصنوع، فما ترى من تكالب الناس على المعيشة ناشىء عن الكفر.

اللفظ غير الحقيقة

نحن نصلّي في اليوم والليلة خمس مرات، وعلى الأقل نقول كلمة (رب العالمين) عشر مرات، فهذه الكلمة لا تعني الإيمان بالربوبية فقط؛ بل هي أمر قلبي يعتقد المسلم من خلاله بأنّ خالقه وخالق الناس وجميع الكائنات واحد. فعلى هذا لا تكون الألفاظ

---

(١) ميزان الحكمة للري شهري، ج٨ ص ٤٠.

مقصودة بالذات؛ بل وظيفة هذه الألفاظ هي تطهير البدن وإجراء الأحكام الإسلامية عليه.

وأما بالنسبة إلى الحقيقة فالشخص لا يكون مسلماً واقعاً إلّا إذا تيقّن بأن الله هو ربُّ العالمين، وأنّ المدبّر والمربّي لجميع العوالم واحد، من الدودة إلى الفيل والجنّ والملائكة، والأرض وسائر الأفلاك والأجرام السماوية، منذ خِلقَتِها إلى تكاملها، فكما أنه ربي فهو أيضاً ربّ جميع الناس، وهو الرازق لهم والكلّ موجود. فما لم يحصل لديه هذا الاعتقاد على الأقل ـ بغض النظر عن حصول حالة الشهود ـ لا يكون مؤمناً ومسلماً حقيقياً.

حدّ اليقين التوكل

روي أنهم سألوا أمير المؤمنين علي عليه السلام: ما حدُّ الإيمان؟ قال: «اليقين».

قالوا: وما حدّ اليقين؟

قال عليه السلام: «التوكّل على الله»[1].

وهذا ناشىء من إدراك السبب والمسبِّب. فلو أنّ أحداً يَتَيَقَّن أنّ سببية جميع الأسباب من الله عز وجل، فمن آثار هذا اليقين التوكّل، فيكون متعلّقاً بالسبب الأصلي لا بالأسباب الظاهرية، ويكون توكله عليه، ويفوّض أمره إليه.

فعندما ينقطع من هذه الأسباب، ويتمسّك بمسبّب الأسباب، يكون الأمر لديه سيّان، سواء حصل سبب أو لم يحصل.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**لا يَصْدُقُ إيمانُ عبد حتى يكون بما في يد الله أَوْثَقَ مما في يده**»[2].

وهذا يعني أنّ الإيمان لا يكون صادقاً إلّا إذا كان أمله بالله وإرادته أكثر من أمله بنفسه وبالأساليب الظاهرية.

---

(١) ميزان الحكمة للري شهري، ج١٠، ص٧٨٢.

(٢) البحار للمجلسي، ج١٠٣، ص٣٧ وميزان الحكمة للري شهري: ج١، ص٣٠٥.

ويتّضح ذلك فيما إذا دهمه أمر، فإن كان اعتماده وأمله على أقربائه وأمواله المودعة، فإيمانه يكون بهذه الأمور، وفي حالات المرض إذا كان اعتماده على الطبيب والدواء، ويكون نظره إلى هذه الأسباب، إذاً فأين الله وتدبيره وتربيته؟

ألم يحِنْ الوقت لكي نعتبر من الخوارق التي حصلت لنا أو للآخرين، ونتعلق بالله عزّ وجل، ونرتبط به لا بالأسباب؟

نور اليقين ليس اكتسابياً

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ليس العلم بكثرة التعليم، بل هو نور يقذفه الله في قلب من شاء أن يهديه**»(١).

هذا العلم هو مقام اليقين، والعلم بالله وبأسمائه وصفاته وبيوم القيامة وسائر المعارف التي تكون من نصيب الإنسان عن طريق الإفاضة الإلهية، وإلّا فاليقين لا يحصل بالكسب، فهو محض عطاء مرتبط بمقدار استعداد الشخص وقابليته على قبول تلك الإفاضة الربانية والاستفادة منها.

يجب أن تكون أعمالكم مصحوبة بذكر الله على كل حال، واسعوا في تحصيل اليقين، فإنه يؤثّر على أعمالكم.

ونقرأ في (دعاء الافتتاح): «**وأعطنا به فوق رغبتنا**» فعندما نصلّي الجماعة لا بدّ وأن يكون توكلنا على الله، وعندما أحجّ فإنه يكون بالاعتماد على فضل الله عزّ وجل، ولكن إذا رأى المصلّي أو الحاج نفسه من أهل الجنة، وقال: إني ملتزم بصلاة الجماعة، أو إني حججت عدّة مرات، فإنّ عمله سيبطل.

هل يكون الأجر بمقدار العمل؟

روي أنّ الشبر من الجنّة يساوي الدنيا وما فيها. وليست الجنة كما تتخيّلها أنت

---

(١) البحار للمجلسي، ج١، ص٢٢٤، الحديث ١٧.

وتريد أن تشتريها بهذه الأعمال الجزئية المصحوبة بالعُجْب والغرور! ومع ذلك فلو كانت أعمالك الصحيحة كالجبال، فهل يمكن أن تساوي الجنة إذا أريد معاملتك بالعدالة؟ وأساساً أنت ومالك وتوفيقك في عملك كلّها من الله.

إذاً فيجب أن يكون التوكل على الله لا على العمل. إلهي بحق محمدٍ وآل محمدٍ ارزقنا الفطنة، واجعلنا من المتوكّلين والمخلصين.

الأمور على أقسام ثلاثة

الخواطر التي تخطر على القلب وتأمرك أو تنهاك عن عمل هي على ثلاثة أقسام فقط: فأما أن يكون صلاحه وخيره واضحاً، فالخاطرة رحمانية، وفيها الرشد والصلاح، فإذا كان كذلك فينبغي لك إتباع مثل هذه الخواطر التي لا شبهة فيها، والعمل بها كالواجبات الشرعية.

وأما أن تكون الخاطرة شيطانية قطعاً، فإذا كانت كذلك فلا تتردّد في تركها: ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف/ ٢٠١] إنها من الشيطان لعلمهم بالأحكام الشرعية، فيعلمون أنّ هذه الخاطرة ضلالة.

وأما القسم الثالث فهي الخواطر التي تجعل الإنسان حيراناً لا يدري هل هي من الرحمن أو من الشيطان، وأكثر المباحات التي لا يعلم الإنسان من أين وردت على قلبه هي من هذا القبيل، فماذا يصنع؟

الأشخاص الذين وصلوا إلى المرتبة الكاملة من التقوى، وهم كالكبريت الأحمر في ندرة وجوده، أولئك لهم قلب منير، فيدركون الأمور بنور التقوى ويميّزون الجيد من الرديء وهو (المبصر) فلا يتردّد فيه، فيدرك بذلك النور، ويميزه عن الظلمة، وطبعاً تكون وظيفة مثل هؤلاء الأشخاص المحدودين معلومة.

* * *

الفهرس